إضـرام النيـران

إضـــرام النيـــران

روايـة

أحـــلام جحّـــاف

اسم الكتاب: إضرام النيران
اسم الكاتبة: أحلام جحاف
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 3699

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

التعليم هو إضرام النيران،
وليس ملء الوعاء.

سقراط

الإهـــداء

إلى كل معلم أحب مهنته وترك بصمة لا تنسى...

إلى كل طالبة جلست أمامي على مقعد الدراسة وربطتني بها علاقة حب وود لا تنسى...

وقفت مترددة هل أدخل لمكتب المدير وأسلمه خطاب الاستقالة بيدي أم أسلمه للسكرتيرة، بعد وقفة حيرة وتردد حزمت أمري وسلمته للسكرتيرة، أخبرتها أنني سأغادر المدرسة بعد أن أودع المعلمات وآخذ حاجياتي من غرفة المعلمات في الطابق العلوي.

صعدت السلم ببطء وأنا أتأمل المدرسة التي قضيت فيها أكثر من عامين، اليوم سيكون هو اليوم الأخير لي هنا، وسأخرج من باب المدرسة دون رجعة. انتابتني مشاعر متناقضة، هل أنا سعيدة بقراري هذا؟

أم أنني تسرعت؟

وعدت بذاكرتي بعيدا....

الحلم والواقع

لم يخطر ببالي يوما العمل في مجال التعليم!

أتذكر جيدا عندما أبلغونا أن المدرسة ستتحول في العام التالي إلى معهد لإعداد المعلمات، يومها كنت في الصف الأول الإعدادي بمدرسة "السالم الصباح"، شعرت بالغضب ونقلت ملفي لمدرسة أخرى في نهاية ذلك العام، وفعلت مثلي كثير من الطالبات.

ببساطة، لم أتخيل نفسي يوما معلمة.

لم يكن العمل في مجال التعليم جزء من أحلام الطلاب وطموحاتهم، حتى في الجامعة كانت الكليات تحدد الحد الأدنى لدرجات النجاح في الثانوية للطالب لدخولها، وأصحاب المعدلات الأقل تكون كلية التربية هي المتاحة لهم.

أن أصبح طبيبة ذلك كان الحلم. كلية الطب كانت هي الهدف. ألم يغرسوا فينا أن الطالب الذكي هو من يدخل القسم العلمي، والأقل ذكاء هو من يدخل القسم الأدبي؟!

وقفت أمام ذلك الحلم عقبة كبيرة يومها فلم يكن هناك مجال لدراسة الطب إلا بالسفر خارج اليمن. رفض عمي الكبير والمثقف سفري مفضلاً زواجي، فرفضت الزواج وعدلت عن فكرة دراسة الطب. دخلت كلية العلوم بحسب نصيحة قدمت لي بأن العام التالي سيكون موعد افتتاح كلية الطب في جامعة صنعاء، لكن افتتاح كلية الطب تم بعد أربع سنوات تقريبا.

اكتشفت بعد الفصل الدراسي الأول في كلية العلوم بأن الطب ليس هو المجال المناسب لي، خاصة بعد درس تشريح الضفادع التعيسة، إذاً هي لم تكن سوى رغبة عاطفية. أقنعوني بأن كلية العلوم تتيح العمل لخريجها في مجالات متعددة، وخاصة لطلاب قسم الرياضيات وهو القسم الذي اخترته، لكنني التحقت بقسم فيزياء – رياضيات؛ لأني كنت الطالبة الوحيدة التي اختارت قسم الرياضيات، بينما الطلاب الستة عشر الآخرين كانوا قد اختاروا قسم فيزياء – رياضيات. بعد التخرج من الجامعة انتهى بي الأمر معلمة للرياضيات وللفيزياء.

العمل في مجال التعليم كان أحد المجالات المفتوحة والمفضلة للإناث في تلك الفترة بعيداً عن الاختلاط بالرجال، في مجتمع محافظ يراقب تحركات الأنثى التي تختار التعليم والخروج للعمل، فتجد العيون الفضولية ترصد كل تحركاتها وتصرفاتها. النظرة للفتاة المتعلمة، وخاصة من تجرأت ودخلت الجامعة كان يملؤها الكثير من الريبة والشك، النظرة للمتعلمة فيها نوع من التناقض والانفصام، نعم نشجع المرأة على التعلم، لكننا نخشى أن تفلت من سيطرتنا، لهذا كانت السمعة السيئة تلحق بكثير من الفتيات المتعلمات. تجربة العمل كانت بالنسبة لي فريدة ومتميزة.

في البداية كان القرار أن أعمل في المعهد العلمي – كما كان يسمى وقتها وهي مدارس دينية تدرس المواد نفسها في المدارس الحكومية مع التوسع في دراسة اللغة العربية والمواد الإسلامية كما سمعت عنها- المعهد ميزته أنه على بعد خطوات قليلة من البيت. قابلت مديرة المعهد، كانت لطيفة جدا، وأبلغتني أنها فعلا بحاجة لمعلمة رياضيات وعلي تقديم الطلب في رئاسة المعاهد العلمية، ذهب زوجي لتقديم الطلب، طلبه رفض، في الوقت الذي تم قبول طلب ابن عمه

لتعمل زوجته معلمة في المعهد نفسه، كان لأبن عمه لحية ويلبس الثوب عكس زوجي حليق اللحية ويلبس بنطلون الجينز. قرر زوجي تحويل الطلب إلى وزارة التربية والتعليم، فتم تعييني في مدرسة الجيل الجديد للبنات بالروضة- وهي ضاحية من ضواحي العاصمة صنعاء حيث كنت أعيش بعد زواجي- معلمة لمادة الرياضيات للمرحلة الثانوية. رغم أنني تخرجت من كلية العلوم ولا أحمل مؤهلاً تربوياً.

اللقاء الأول

تبدأ الحكاية صباح ذلك اليوم الـذي دخلـت فيـه المدرسـة، حاملـة بيـدي الإرسالية من مكتب التربية للعمل معلمة لمادة الرياضيات للمرحلة الثانوية.

مديرة المدرسة سميرة، زميلة لي من أيام الدراسة، يا للمفاجأة السـعيدة. لم أرها بعد تخرجنا من الثانوية العامة.

سرحت بخيالي لأيام الثانوية العامة... وسميرة تشاركني المقعد المزدوج في الصف الثالث الثانوي القسم العلمي بمدرسة أروى الثانوية للبنات، المدرسـة الوحيدة للبنات بصنعاء في ذلك الزمن. لم تتغير كثيرا عن أيام الدراسة، ربما زاد وزنها قليلا، هي أم لطفلين الآن. فرحتي لم تدم طويلا. اللقاء الأول كان غريبـا باردا وكأنها لا تعرفني، أو بدا كأنها انزعجت لرؤيتي.

لم أفهم! لقد تجاهلت تماما أنها تعرفني، تتعامل معي برسـمية مبـالغ فيهـا. رفضت تسليمي جدول الحصص لمادة الرياضيات في مدرسة البنات التي تديرها، متجاهلة ورقة الإرسالية التي أمامها.

لماذا؟

شرحت لي بأن المواد العلمية في المدرسة يقـوم بتدريسـها أفضـل المعلمـين العرب، وهي ليست متأكدة بأن معلمة يمنية يمكنها أن تدرس مادة علمية مهمة مثل مادة الرياضيات. نحن في العام ١٩٨٨ م كل الطاقم التدريسي للمـرحلتين الإعدادية والثانوية بما في ذلك الصف السادس الابتدائي، يتكون مـن معلمـين

ومعلمات من دول عربية مختلفة: مصر، والأردن، والسودان، وسوريا، لا يوجد معلم يمني واحد بالمدرسة في أي من المرحلتين الإعدادية أو الثانوية. المعلمات اليمنيات في المدرسة هن من حملة دبلوم معلمات، أو ممن يحملن الشهادة الثانوية، ويقمن بتدريس الصفوف الابتدائية من الصف الأول الابتدائي إلى الصف الخامس الابتدائي فقط. السلم التعليمي في اليمن مكون من اثنتي عشرة سنة، المرحلة الابتدائية ست سنوات تنتهي بالصف السادس الذي يسمى الشهادة الابتدائية، والمرحلة الإعدادية ثلاث سنوات تنتهي بالشهادة الإعدادية، والمرحلة الثانوية ثلاث سنوات تنتهي بالشهادة الثانوية، في المرحلة الثانوية ابتداءً من الصف الثاني الثانوي يوجد قسمان: القسم العلمي، والقسم الأدبي فقط. أذن أنا أول معلمة يمنية تحمل مؤهلاً جامعياً ستتعامل معها المديرة في هذه المدرسة. وكان علي أن أدفع ضريبة ذلك. هزت رأسها بعناد، وهي تقرأ الإرسالية، ونظرت إلي بنوع من التحدي بعينيها الواسعتين من خلف اللثام الأسود[1]، وقالت:

---

١ اللباس المعتاد للنساء في صنعاء كان الشرشف لتغطية كامل الجسم، واللثام للوجه، والشرشف هو لباس أسود اللون يتكون من ٣ قطع الجناح والفوطة والخنة (الفوطة هي الجزء الأسفل من الشرشف ويغطي من الخصر إلى الأرض وله كسرات متعددة، والجناح هو الجزء العلوي الذي يغطي الرأس مع بقية الجزء الأعلى من الجسم، والخنة قطعة من القماش الأسود الشفاف، يمكن استخدامة لتغطية الوجه أو تركه للخلف)، فالشرشف يغطي كامل الجسم مع اللثام الذي يغطي الوجه عدا العينين. كانت المرأة في صنعاء ترتدي الستارة المزخرفه، إلى جانب الشرشف حتى بداية التسعينات بعد ذلك قل لبس كل من الشرشف والستارة بسبب ظهور العباية السوداء والنقاب.

- ما رأيك بتدريس مادة أخرى، غير الرياضيات. احتاج أمينة مكتبة.

- لكن تخصصي رياضيات.

قلت ذلك بشيء من الضيق، وأشرت للإرسالية التي أمامها على المكتب.

سألتني، وهي تتجاهل كلامي:

- ألا زلت شغوفة بالقراءة؟

وتابعت دون أن تنتظر إجابتي:

-أتعلمين، أنت أفضل من يدير مكتبة المدرسة، صدقيني، وهو عمل إداري خفيف ستستمتعين به بدلاً من وجع الرأس، وتدريس مادة صعبة مثل الرياضيات.

وتابعت حديثها بشيء من الجدية، بعد أن قطبت حاجبيها:

- غالبا أعلى نسبة رسوب بين الطلاب في المدارس هي في مادة الرياضيات، لابد أنك تعلمين هذا!

عندما لاحظت اصراري على تدريس الرياضيات، وعدم تحمسي- أن أكون أمينة مكتبة، قالت بعد التفكير للحظات:

- سأجرب، سأعطيك الفرصة لتدريس مادة الجبر فقط للصف الأول إعدادي، أما الهندسة فلا أستطيع المجازفة.

- المجازفة بماذا؟ ...

أجبتها بكثير من العجب.

فقالت وهي تشرح وجهة نظرها:

- الجبر مادة سهلة؛ لكن الهندسة صعبة.

- لكن دروس الجبر والهندسة توجد في الكتاب نفسه.

ردت وكأنها لا تسمع سوى صوت نفسها:

- ستدرسين الجبر فقط، وسيقوم الأستاذ محسن بتدريس الهندسة. وسنرى ماذا يمكن أن أضيف لجدولك من حصص العلوم، وربما الفيزياء للأول الثانوي. تخصصك فيزياء أيضا، أليس كذلك؟

هكذا كانت بداية تعاملي مع مديرتي في المدرسة وزميلة الدراسة سابقا، والتي جعلتني أكتشف أن بيننا مشكلة من نوع ما من أيام الدراسة. حاولت أن أتذكر ما الذي تحمله علي، لكن ذاكرتي لم تسعفني، لا أتذكر خصاماً أو شجاراً من أي نوع حدث بيننا. وعدت بذاكرتي إلى الصف الثالث الثانوي عندما كانت تمسك بيدي وتصطحبني لنتمشى سويا في ساحة المدرسة في فترة الاستراحة، وتوجه إلي كلامها المليء بالمواعظ والنصائح، "يا أحلام لا تنسي- أنك يمنية، دعك من مرافقة الفتيات العربيات، هن مختلفات عنا"، ويدور سؤال في ذهني... بم يختلفن عنا؟ وتسترسل هي:" هن أكثر تحرراً، لكننا مجتمع محافظ على العادات والتقاليد ...لا يعجبني بعض تصرفاتك...أنت لا تدركين تأثيرهن السيء عليك..."، ويرتفع صوت الجرس معلنا انتهاء فترة الاستراحة والتي قضيتها بضيق استمع لموعظة أخلاقية من سميرة، التي تستمتع بلعب دور الناصحة، فهي تراني فتاة طائشة تحتاج لنصائحها، وهي محافظة على تقاليد المجتمع، ويتجلى ذلك بوضوح بارتدائها للشرشف، لكنني كنت متمردة لأني مثل عدد قليل من الطالبات لا ألبس الشرشف. في أيام أخرى عندما يكون حظي أفضل أنجح في الهروب منها، والالتحاق بصديقاتي العربيات، والإفلات من دروس النصائح والمواعظ المتكررة...

أبلة يمنية[١]

سرت شائعة بين البنات في المدرسة أن هناك أبلة يمنية للرياضيات، علمت هذا بعد سنوات، الطالبات في حالة تخوف وترقب لهذه الأبلة العجيبة. شعرت أن كل حركاتي وسكناتي مراقبة، ما أن أقف أمام الطالبات إلا وأشعر بتلك العيون التي يطل منها الفضول تراقبني وتتفحصني وكأني كائن جاء من كوكب غريب. أصبحت ملابسي وأناقتي هي أهم مجال للحديث اليومي للطالبات.

اقتربت مني يوما إحدى المعلمات على حذر، وألقت بالتحية مبتسمة، وبادرت بالحديث معرفة بنفسها:

- أنا آمال معلمة "ملزمة"[٢] أدرس مادة الأنشطة الفنية.

واستطردت:

- بصراحة شكلك يبين أنك مغرورة ومتعالية، ولم تصدق سامية بأنك ستقبلين التحدث معنا، لهذا تراهنت معها بأنني أستطيع أن أتكلم معك.

لم أدر بما أرد عليها فاكتفيت بابتسامة خفيفة، فهذا هو الانطباع الأولي الذي اعتدت أن يحكم به علي الآخرون.

- لحظة سأذهب لاستدعائها.

---

[١] كانت المعلمة – أو الأستاذة- تدعى أبلة في ذلك الوقت.

[٢] في تلك الفترة صدر قرار بإلزام الطالبات بعد التخرج من الثانوية بتأدية خدمة إلزامية لمدة عام في المدارس. لأن الطلاب صدر بحقهم قرار التجنيد الإجباري بعد الثانوية العامة.

ذهبت مسرعة وعادت وهي تمسك بيد صديقتها المقربة سامية..

أصبحت آمال وسامية صديقتين مقربتين إلي منذ ذلك اليوم. آمال فتاة صغيرة السن، تخرجت من الثانوية العامة حديثاً وتعمل في المدرسة معلمة "ملزمة"، تدرس مادة الأنشطة الفنية، مليئة بالنشاط، يملؤها الطموح والآمال الكبيرة، لم تكن علاقتها جيدة بمديرة المدرسة إثر خلاف سابق بينهما لم أعرف تفاصيله. هي نحيلة الجسد بيضاء البشرة ذات عينين تطل منهما الثقة والاعتداد بالنفس، تشتعل حماسا لتعليم الطالبات مهارات صنع لوحات فنية من خامات البيئة، مستخدمة أسلاك نحاسية وجوارب شفافة ومواد أخرى؛ لتنتج منها لوحات فنية رائعة، حماسها كان يقابل بفتور شديد من مديرة المدرسة، أما سامية فهي معلمة تجيد تدريس الصغار في الصف الأول الابتدائي، وعلى العكس من آمال فهي مكتنزة الجسم قامتها أقرب للقصر، تملك روح خفيفة وتمتاز بطيبة القلب.

المدرسة تعمل بنظام الفترتين مثل أغلب المدارس في العاصمة صنعاء، فالمدارس تزدحم بالطلاب والطالبات بأعداد متزايدة في كل عام؛ لكن عدد المدارس لا يزيد بما يتناسب مع أعداد الدارسين.

الفترة الصباحية خصصت للصفوف الإعدادية والثانوية إضافة إلى الصفين الخامس والسادس، وشعبتين للصف الأول الابتدائي. والفترة المسائية هي للصفوف من الأول وحتى الرابع من المرحلة الابتدائية. في الفترة المسائية يدرس الطلاب الصغار من الجنسين ذكوراً وإناثاً.

في الفترة الصباحية المدرسة خاصة بالبنات عدا الشعبتين (أ وب) للصف الأول الابتدائي. لم تخصص الإدارة غرفة للمعلمات أو المعلمين لذا يتوزع من لا

حصة لديه بين الإدارة أو غرفة الإرشيف أو المكتبة، والبعض كان يفضل الجلوس على مقعد في ساحة المدرسة في منطقة الظل.

بمرور الوقت بدأت بالتعرف على المعلمين والمعلمات في المدرسة، الأبلة أسماء معلمة يمنية تدرس مادة العلوم للصف الخامس الابتدائي، تتعامل مع الجميع بتعال وغرور واضحين، شرحت لي عدة مرات أهمية المادة التي تقوم بتدريسها وكيف أنها بارعة في ذلك، وكم لديها من الخبرة في مجال التدريس، تذكرتها، نعم فهي أيضا زميلة سابقة لي من أيام الدراسة، لكنها ظلت في معهد سالم الصباح، وتحمل شهادة دبلوم معلمات.

وكيل المدرسة الأستاذ عبد الله – الجميع يناديه أبي عبد الله، وهي عادة اجتماعية يشتهر بها سكان صنعاء، بمناداة الكبار في السن بلفظ أبي أو أمي مبالغة في التقدير والاحترام – من جيل الآباء، في العقد السابع تقريبا من العمر، يتمتع بشخصية ودودة، ويتعامل مع الجميع بلطف وهدوء، كان يعمل سابقا معلماً للغة العربية ومواد التربية الإسلامية في المدرسة ذاتها، وقبل ذلك كان يعمل معلماً في المعلامة[١] قبل دخول نظام التعليم الحديث، أبي عبد الله يمثل علامة مميزة للمدرسة بلباسه التقليدي: العمامة والقميص المقلم ذي الأكمام الطويلة الواسعة والتي يتم ربطها خلف الرقبة لتظهر من تحت القميص الملابس الأخرى بيضاء اللون. ويقوم بالإشراف على المدرسة خاصة عند غياب المديرة الذي كان متكررا، لكن أبي عبد الله لا يغيب أبدا. كان يتحرك بخطوات بطيئة وكأنه يسحب قدميه سحبا على الأرض بحذائه المميز والذي كان يسمى "التشيكي"، وهو نوع من

[١] المعلامة هي النظام القديم للتعليم وعرفت بالكتاتيب في بعض الأقطار.

الأحذية البنية اللون، انتشرت بشكل كبير قديما ولبسها الرجال والنساء، وخاصة في المناطق القروية. ولا أدري لماذا انتشر هذا الموديل بالذات من الأحذية المصنوعة في تشيكوسلوفاكيا (سابقا)، وهي من صنع شركة "باتا" التي كانت تصنع الأحذية بمصانع انتشرت في دول كثيرة، وبلغ عدد مصانعها تسعون مصنعاً عام ١٩٧٥ م، وكان انتشار المصانع خارج تشيكوسلوفاكيا بعد تأميم المصانع في الداخل، مما أتاح لمالك المصانع نقل عمله إلى تسعة وثمانين دولة حول العالم.

قال لي ذات يوم في نقاش حول مستوى التعليم في اليمن:

- لن يتطور التعليم في اليمن بوجود تلك العقول الجامدة في الوزارة، صدقيني يا أبنتي لا أمل فيهم، الحل الوحيد هو رشهم جميعا بال د. د.ت، وبعد التخلص منهم جميعا يمكن أن تأتي عقول أخرى تؤمن بالتطور والتحديث.

لم أخف عجبي وصدمتي من قسوة ما قاله، لكنه أكد لي أنه في ظل استمرار الأشخاص ذاتهم، والثقافة ذاتها لمن يتولون المناصب القيادية في وزارة التربية التعليم، فلا أمل للتحسن برأيه.

الأبلة هناء موظفة في الإرشيف وهي مسؤولة عن كل السجلات بالمدرسة وملفات الطالبات، وتربطها صلة قرابة بالأبلة أسماء، لكنها على عكس قريبتها، تتعامل مع الجميع بود، وهي -أيضاً- زميلة دراسة سابقة، وتحمل دبلوم معلمات، دائمة التعليق بسخرية على كل شيء.

الأستاذ نبيل مصري الجنسية يدرس مادتي الفيزياء والكيمياء للمرحلة الثانوية وقامت المديرة بإعطائي حصص الفيزياء للصف الأول الثانوي من جدول الأستاذ نبيل مما أثار مشكلة مع الطالبات، لم يتقبلن بسهولة أن تقوم

بتدريسهن معلمة يمنية، خاصة والأستاذ نبيل له شهرة واسعة بأنه معلم صاحب كفاءة وخبرة عالية.

الأستاذ محمد مصري الجنسية يدرس الرياضيات للمرحلة الثانوية، يمتلئ نشاطا ويتمتع بأخلاق عالية، الأستاذ محسن مصري الجنسية ويدرس الرياضيات للمرحلة الإعدادية، وتم تقاسم تدريس الرياضيات للصف الأول الإعدادي في العام الأول بيني وبينه فهو يدرس الهندسة، وأنا ادرس الجبر.

الأبلة فيروز معلمة يمنية لمادة القرآن الكريم والتربية الإسلامية، التحقت بالمدرسة بعدي بثلاثة أشهر تقريبا، هي ثاني معلمة يمنية تحمل شهادة جامعية في المدرسة، لم تواجه مشكلة رفض من المديرة لأن تخصصها إسلامية، وذلك تخصص من الممكن أن تقوم بتدريسه يمنيه بحسب معايير المديرة. حاولت التقرب من فيروز؛ لكنها فضلت وضع مسافة واضحة بيننا، ولاحظت أنها تبقى على مسافة من الجميع. في إحدى المرات ونحن نتبادل أطراف الحديث حول الطالبات والمناهج الدراسية في مكتبة المدرسة، فاجأتني بقولها:

- ناديني أبلة فيروز من فضلك، لا يعجبني من يناديني فيروز هكذا.

لم أصدق ما سمعت، هل تعني ما تقول حقا؟

قالت لي إحدى المعلمات بشيء من التهكم والسخرية:

-تخيلي حتى في بيتهم الكل يناديها أبلة فيروز.

نقابل في مشوار حياتنا أنواعاً متعددة من البشر، فيهم من له نظرته الخاصة للحياة، ويبدو أن فيروز من هذا النوع، فهي تفضل وضع حاجز بينها وبين الجميع، فهي لا ترى نفسها معلمة من معلمات المدرسة بل ترى أنها معلمة من نوع خاص ومختلف. وفي الحقيقة هناك من البشر من يرون العالم من ثقب ضيق،

ويظنون أنهم يحتكرون كل الحقيقة، ولديهم مقاومة كبيرة لأيـة محاولـة لتوسـيع مساحة ذلك الثقب الذي يرون العالم من خلاله.

كان جو المدرسة غريبا وغير مألوف بالنسبة لي في بداية الأمر، لكن بمـرور الأيام بدأت تتضح لي الرؤية، وبدأت أرى الصراعات التي تدور داخل المدرسة بشكل واضح.

مدرسة الجيل الجديد

تقع المدرسة في مدينة الروضة، شمال العاصمة صنعاء، في الجهة اليمنى من الطريق الرئيسي المؤدي إلى مطار صنعاء الدولي.

وتذكر كتب التاريخ أن بناء مدينة الروضة تم في عهد أحد سلاطين دولة بني حاتم التي حكمت اليمن بين الأعوام: ٤٩٢-٥٩٦ه الموافق (١٠٩٨م-١١٩٩م)، وحملت اسم "روضة حاتم". واشتهرت مدينة الروضة ببساتين العنب وخاصة "عنب البياض" الخالي من البذور، وهناك نوع من العنب يسمى" الحاتمي". ومن معالم الروضة بيوتها الطينية الجميلة المطلة على تلك البساتين، وأغلب تلك البساتين اختفت بسبب التوسع العمراني ونضوب الآبار. ويردد أبناء الروضة مقولة شعبية مشهورة عن مدينتهم: "روضة أحمد لمن صلى وصام". وقد جاء ذكر الروضة في قصيدة للشاعر والأديب والفقية محسن عبد الكريم إسحاق (١٧٧٧م – ١٨٥٠م) يقول في بعض أبياتها:

كل الرياض تفدي ... في الحسن روضة أحمد

مفارجها محجوبة تحت شرعة ... كحسناء في الشباك ذات تمنع

وقد ظهر العنقود من تحت خلبها ... ظهور عيون العين من تحت برقع

هزارها تغنى ... فوق الغصون وردة

لما شدا بمغنى ... أنساك صوت معبد

لذاك قد تثنى ... من يسمعه وأنشد

كل الرياض تفدي ... في الحسن روضة أحمد.

واتخذ كثير من مشاهير وأثرياء مدينة صنعاء -في الماضي- بيوتاً لهم في الروضة يخرجون إليها في موسم نضج العنب صيفا. وينتشر مصطلح الخروج للروضة والدخول لصنعاء بسبب موقع الروضة خارج صنعاء.

مدرسة الجيل الجديد للبنات تقع تحديدا في حارة "حمزة"، في الشارع المقابل لجامع حمزة، وهو ثاني أكبر جامع في الروضة بعد الجامع الكبير- الجامع التاريخي الذي بناه " أحمد بن الإمام القاسم بن محمد"، الذي كان يعرف بأبي طالب، وإليه يعود نسب أغلب سكان الروضة ممن يحملون لقب "أبي طالب"، بدأ بناء الجامع الكبير في سنة ١٠٤٤ه (١٨٣٤م) - ويقع على بعد خطوات من المدرسة، وعلى مسافة ليست بعيدة يقع سوق الروضة الذي يقام فيه سوق أسبوعي شعبي شهير يسمى "سوق الأحد" ، ففي كل يوم أحد يأتي المزارعون من القرى القريبة لبيع منتوجاتهم المتنوعة من البيض البلدي والسمن البلدي والحبوب والفاكهة والخضار حسب الموسم، وكذلك صغار الأغنام والماشية، إلى جانب عدد من المنتوجات الحرفية الشعبية.

للمدرسة سور مرتفع يحيط بها، يفصلها من أحد جوانبها عن مستوصف الروضة، وعند الدخول من بوابة المدرسة تجد أمامك مبنى جديداً مكوناً من طابقين يشبه المباني الاعتيادية للمدارس، يحتوي على ثلاثة فصول واسعة في كل طابق، وعلى اليسار مبنى آخر قديم مكون من طابق واحد مبني من الحجارة السوداء. بينهما ساحة واسعة تتوسطها سارية العلم؛ حيث تقف الطالبات كل صباح للطابور الصباحي وتحية العلم، وللمبنى القديم مدخلان، مدخل من أمام الساحة وسارية العلم حيث توجد ثلاث درجات من الحجر الأسود تقف عليهن الطالبات لتأدية نشيد السلام الجمهوري وتحية العلم وتنفيذ فقرات الإذاعة

المدرسية كل صباح، وهناك مدخل آخر جانبي قريب من المقصف، أو مكان بيع الحلويات والوجبات الخفيفة داخل المدرسة.

المبنى القديم للمدرسة عبارة عن ممر طويل وعلى جانبيه غرف صغيرة أو متوسطة المساحة تستخدم فصولاً دراسية تنقصها الإضاءة الجيدة بسبب صغر حجم النوافذ المرتفعة وفي كل صف سبورة إسمنتية مطلية باللون الأسود على أحد الجدران، وأغلب السبورات تنتشر عليها حفر، ويصعب الكتابة عليها.

في بداية الممر بعد الصعود على الدرجات الثلاث تقع على اليسار غرفه الإرشيف حيث مكتب الأبلة هناء يحيط بهذه الغرفة أرفف على الجدران عليها ملفات الطالبات مرتبة حسب الأعوام الدراسية. وفي منتصف الممر تقريبا وعلى الجهة اليمنى يقع مكتب المديرة – وفي حجرة مكتب المديرة هناك كراسي إضافية وطاولة تستخدم لجلوس المعلمين والمعلمات بين الحصص أو في فترة الاستراحة – وأمامها مباشرة الباب الثاني للمبنى والمؤدي للمقصف، وفي نهاية الممر تقع دورات المياه والمطبخ الذي يستخدم لدروس التدبير المنزلي عندما تتوفر معلمة لذلك النشاط، وهناك باب ثالث للمدرسة؛ لكنه مغلق بشكل دائم ويؤدي للساحة الخلفية للمدرسة.

في فترة الاستراحة تنتشر الطالبات في الساحة على هيئة حلقات مكونة من ثلاث طالبات أو أكثر؛ حيث تجلب الطالبات الخبز وبعض المأكولات من البيت ويشرعن في تناول وجبة الإفطار، والبعض منهن يتزاحمن عند مقصف المدرسة لشراء السندويتشات أو العصائر أو الحلويات، وتتعالى الأصوات للفت نظر صاحب المقصف بغرض الشراء قبل الأخريات.

المبنى القديم للمدرسة بُني بعد ثورة ١٩٦٢م واستخدم في البداية لتخزين الحبوب التي كانت تأتي على هيئة مساعدات لليمن، وفي بداية السبعينات استخدم المبنى لتعليم الطلاب.

الشارع المقابل للمدرسة، والذي يمر بجانب جامع حمزة، شارع ضيق متعرج يقع على جانبية أسوار طينية عالية تخفي وراءها المنازل الطينية ومزارع العنب والرمان والخوخ، ويؤدي هذا الشارع إلى وادٍ يمر فيه السيل أو مياه الأمطار التي تسقط على العاصمة صنعاء فتتجمع فيما يسمى بالسائلة، وهذا الوادي يسمى وادي نعجة، وهو امتداد لسائلة صنعاء الشهيرة، وهو الشارع الذي كنت استخدمه كل يوم في مشواري من وإلى المدرسة. من فوق تلك الأسوار الطينية للمزارع تتدلى أغصان أشجار الرمان والخوخ، فتشكل إغراءً لايستطيع بعض الأطفال مقاومته في فترة نضج الثمار وتدليها بإغراء من فوق الأسوار العالية يجعلهم يحاولون القفز لالتقاط تلك الثمار حتى قبل تمام نضجها، أو يلجأون لقذفها بالحجارة لعلها تصيب من هذه الثمار وتسقطها. أما الطريق فقد كانت ترابية وعليها سواقٍ للمياه تقع على جانبيها، ولها فتحات لتلك البساتين. الطريق موحشة ومن النادر أن تصادف من يمر عليها.

أمام المدرسة دكان صغير يبيع خضاراً وفواكه، ومنتوجات متنوعة بما في ذلك الدفاتر والأقلام والألوان وغيرها مما يحتاجه الطلاب، ورغم صغر حجمه إلا أن المرء يجد فيه مايريد. وعادة ما يزدحم بالطلاب والطالبات لشراء الحلويات والعصائر.

متعة التدريس

عكس ما توقعت فقد وقعت في عشق مهنة التدريس، شعرت بالمتعة وأنا أعلم البنات. كان هناك شيء ما يربطني بالبنات، فلم يقتصر الأمر على نقل معلومة أو شرح درس، بل كان شيئاً أكثر من ذلك.

لم أتخيل أنني سأحب مهنة التدريس، اكتشفت أنني أملك الكثير مما يستحق أن أقدمه للطالبات. كل طالبة مثلت بالنسبة لي تلك الطالبة التي كنت، والتي فشل بعض المعلمين في إيصال المعلومة بشكل صحيح إليها، لكنني أعلم جيداً كيف أفعل ذلك. أعلم بما تشعر به الطالبة، تلك التي تقف حائرة أمام مسألة رياضية لا تعرف كيف تحلها. كان هدفي أن تحب كل طالبة مادة الرياضيات وتعتبرها مادة قابلة للفهم، نجحت في ذلك إلى حد كبير، كثير من طالباتي عبرن عن ذلك في مناسبات عديدة.

من مهام المعلم عملية تحضير الدروس في دفتر التحضير. لم يكن لدي أدنى فكرة عن ذلك الأمر. لم أتعلم طرق التدريس، ومواد علم النفس وغيرها مما يتعلمه عادة خريجي كليات التربية، أو معاهد إعداد المعلمين والمعلمات.

وهذه نقطة ضعف من وجهة نظر المديرة وتشاطرها في ذلك الرأي الأبلة أسماء التي كانت تتفنن في إظهار أنها خبيرة في التدريس لأنها تربوية، تشعر بسعادة وهي تشرح خبرتها وبراعتها في التدريس. لا أدري هل هي رسالة لتقول

لي ألم تهربي من معهد المعلمات ذات يوم، ها قد عدت للعمل في مجال التدريس، ربما. لكنها لم تتبرع يوما بتدريبي أو تعليمي ما تفخر به.

طلبت مني المديرة الاطلاع على دفاتر التحضير السابقة الموجودة في مكتبة المدرسة – إدارة المدرسة تطلب من المعلمين تسليم دفاتر التحضير في نهاية العام الدراسي ويتم الاحتفاظ بها في مكتبة المدرسة.

مديرة المدرسة اعتادت أن تطلب دفاتر التحضير من الجميع كل فترة لتطلع عليها وتوقعها، كنت أجهز لها الدفتر بالرغم من أنني لم أفهم ما فائدة ذلك الدفتر، فقد ابتكرت طريقة لتحضير الدروس بشكل مختلف.

طريقتي كانت أكثر جدوى من وجهة نظري في ذلك الوقت، بل كانت ناجحة والدليل نجاحي في تدريس الطالبات بشكل رائع. ببساطة اتخيل الطالبة أمامي، وأفكر كيف أنقل ما جاء في الدرس للطالبة بحيث تفهم وتستوعب الدرس. كل خطوة في حل المسائل يتم شرحها بالتفصيل. وقد أقوم بشرح الدرس بطرق مختلفة في حال لم تفهم بعض الطالبات الدرس بشكل جيد. في كل درس يتم تكرار العمليات الرياضية السابقة، لأن الطالبات لديهن مشكلة مع تذكر ما تم دراسته سابقا، فالتعليم قائم في الأساس على حفظ المعلومات لدخول الاختبار، ثم نسيانها بعد ذلك، وهذه نقطة حاولت تنبيه الطالبات أنها خطأ؛ لأن الرياضيات تعتمد على معلومات وقوانين سابقة.

ما أذكره عن بعض المعلمين في طفولتي هو حبهم لتحويل مادة الرياضيات إلى ألغاز ورموز غير مفهومة، كنت أحتار دوما في حصة الرياضيات ولا أدري ماذا يفعل المعلم، وعندما أقف عند نقطة معينة يصعب علي المتابعة بعدها، لا يكون من السهل الاستفسار؛ لأن السؤال سيجعل مني عرضه لسخرية المعلم؛

لهذا شجعت الطالبات على السؤال والاستفسار دون تردد فلا وجود لسؤال غبي، لكن الغباء هو الاحتفاظ بالجهل.

كنت أؤكد لهن أن الرياضيات تكسبنا طرقاً مختلفة للتفكير وحل المشكلات في حياتنا، وأن المسألة الرياضية قد يكون لها أكثر من حل، وكل الطرق صحيحة، ولا توجد طريقة هي الأصح أو الأفضل.

وتقفز ذكرى إلى ذهني حدثت لي ذات مرة عندما نجحت في حل مسألة رياضية وكنت فخورة بذلك؛ لكن أستاذ الرياضيات نظر إلي شزرا وقال:" لم كل هذه الخطوات للحل؟"، وأشار بيده بسخريه ووضعها على أذنه البعيدة وقال:" أين أذنك ياجحا؟"، ظل ذلك الموقف يزعجني لسنوات، وكان سبباً لفقدي ثقتي بنفسي لفترة من الزمن، ولم أشأ أن أكون ذلك الأستاذ الذي يترك ذكرى سيئة في نفوس طلابه، والذي يريد أن يكون الجميع نسخ مكررة من أسلوبه في التفكير.

حاولت بكل الطرق أن أحل كل الاشكالات التي حدثت معي وأنا في صفوف الدراسة، كنت أعرف جيداً نقاط ضعف المعلمين في التعامل مع طلابهم، لأنني عانيت منها.

لم يكن لدي مشكلة مع نسخ الطالبات لمواضيع الواجب المنزلي من بعضهن...واكتشاف ذلك كان يسير خاصة عند تعميم خطأ معين في الحل، وطلبت إلى الطالبات عندما يقمن بنسخ الواجب من زميلة لهن أن يقرأن ما ينسخن بتمعن لفهم ما يقمن بنسخه.

شرحت لهن أن هناك درجات للطالبة تسمى درجات أعمال السنة وهي موزعة على الواجبات المنزلية والاختبار الشفوي، والاختبار التحريري الشهري

والنشاط داخل الصف ودرجات للحضور والغياب، ولكل بند درجات محددة وفي نهاية كل شهر كنت أعلن للطالبات درجاتهن ليعرفن أنني لا أمزح وأن الأمر بالنسبة لي جدي ولا مجال لتقدير الدرجات أو إعطائهن درجات وهمية. ساعد ذلك كثيراً في التزام أغلبهن، وتقويم تصرفاتهن.

عندما كنت أشرح الدرس وألاحظ أن الطالبات في الصفوف الخلفية يتسلين "بقزقزة اللب" أو فصفصة البذور كنت أقترب منهن بهدوء وأمد يدي ليضعن جزء مما لديهن وأبدأ بفصفصته، كان تصرفي يشعرهن بالإحراج فيتوقفن عن ذلك.

اعتدت أن أدخل للصف أحمل معي مساحة للسبورة وأصابع الطباشير البيضاء والملونة وكل ما أحتاجه لتنفيذ الدرس حسب طبيعته، فلا مجال للطالبات للخروج من الفصل، وتعطيل الحصة بحثاً عن مساحة أو بحثاً عن الطباشير.

النصيحة

نصحتني المديرة في العام الأول أن أحضر حصصاً مع بعض المعلمين، لأتعلم منهم، وأكتسب خبرة في مجال التعامل مع الطالبات، وإلقاء الدروس. كان ذلك نوعاً من اكتساب الخبرة لأنه لا وجود لدورات تدريبية للمعلمين في ذلك الوقت.

في أحد المرات كنت أستمع لنصائح عن طرق التدريس والتعامل مع الطالبات من أحد المعلمين أصحاب الخبرة الطويلة، الأستاذ سيد، معلم مادة الاجتماعيات، والذي قدم لي سيلاً من التوجيهات من خبرته الطويلة في مجال التدريس:

- اسمعي يا أبلة أحلام لنفرض أنك تشرحين أحد الدروس وكتبت على السبورة معلومة غير صحيحة، والبنات كتبنها في الدفاتر، أنت اكتشفت الخطأ بعد ذلك، ماذا ستعملين؟

- أصحح المعلومة طبعا.

صرخ بصوت عالٍ محذرا، وهو يلوح بسبابته في حركة تحذيرية:

- إياك أن تقعي في هذا الخطأ.

أدهشني طبعا رده غير المتوقع. فسألته بتعجب واضح:

- إذاً ماذا أفعل؟

أجاب بطريقة حازمة:

- تجاهلي الأمر تماما، وفي اليوم التالي اسألي عن بعض نقاط ذلك الدرس وعندما تجيب إحدى الطالبات بالمعلومة الخطأ عنفيها واتهميها بالغباء، ولو قالت إنك قلت ذلك فاتهميها بالتخريف والغباء. حتى لو تطوعت بنات أخريات بإثبات أنك قلت ذلك، وأن تلك المعلومة مكتوبه في الدفتر فارفعي صوتك عاليا وقومي بتقريع البنات، واتهامهن بالغباء والبلادة وأنهن ينقلن المعلومات بطريقة خطأ من السبورة.

- لكن هذا...

قاطعني بكل حزم:

- إذا اعترفت بالخطأ ستفقدين ثقة البنات، لابد أن تحافظي على صورتك أمامهن، فالمعلم الممتاز لا يخطئ أبداً، هزي ثقتهن بأنفسهن.

أية تعليمات وأية نصيحة، هذه كارثة!

ذلك ما فكرت فيه، شكرت الأستاذ سيد على نصائحه الثمينة، وبدوره استمر في تأكيد تلك النصيحة واقناعي بأنها ستجعل مني معلمة مميزة.

تلك النصيحة الكارثة لم أعمل بها، فمحاولة إرهاب الطالبات لتغطية عجز المعلم طريقة غريبة فعلاً، ومن العجيب أن تصدر عن معلم له خبره طويلة في مجال التدريس، وهي تكشف إحدى الطرق العقيمة التي يؤمن بها البعض، العجيب إنه لا يشغل نفسه بالتفكير عن الكيفية التي سينظر له الطلاب بعد موقف غريب كهذا! هل يظن أنهم سيحترمونه ويثقون فيه!

الاحترام علاقة لا تبنى على الخداع والغش بكل تأكيد، وهيبة المعلم لا تقوم على الأكاذيب.

العصا

كل معلم أو معلمة في المدرسة يحمل في يده عصا. مسألة الضرب في المدرسة أمر لابد منه، فمن تتأخر، من لا تحل الواجبات، من تحدث فوضى أو تثير الشغب، أو من ترد على المعلم بطريقة يراها غير لائقة، عقابها معروف سلفا، الضرب بالعصا أو بالمسطرة. المعلمون والمعلمات يكتسبون الهيبة بفضل تلك العصا التي يخيفون بها الطالبات.

لم أحمل العصا، العجيب أنني كلما دخلت أحد الصفوف أجد إحدى البنات قد تطوعت لإعطائي عصا وتحاول إقناعي بأهميتها. شرحت للبنات أنني لن أحمل عصا، ولن أضرب أحداً، فترتسم الدهشة على وجوههن البريئة، احتاج الأمر لوقت غير قصير لتعرف الطالبات أنني جادة فيما أقول، وأنني لن استخدم العصا أبدا.

"أنا مقتنعة أن كل طالبة فيكن تستحق الاحترام وليس الضرب، ليست مهمتي هنا الضرب".

حاولت أن أشرح ذلك لمرات متعددة، وأفضت في شرح أن من لا رغبة لها في التعليم من الصعب إرغامها على ذلك. حاولت بعض الطالبات أن تقنعني باستخدام العصا لأن بعض البنات لم تأت للمدرسة حبا في التعليم! بل هربا من الأعمال المنزلية المرهقة التي توكلها لهن الأمهات، وستستمر في الحضور للمدرسة

حتى يأتي النصيب ويتقدم أحدهم لطلب يدها للزواج، عندها ستترك المدرسة، وهذا حال الكثيرات.

لكنني وضعت قواعدي التي كانت تختلف عما يتبعه البقية، لم يكن الأمر سهلا في البداية؛ لكنني تحملت نتيجة اختياري الصعب ونجحت، فقد استطعت أن أحصل على حب الطالبات واحترامهن لي دون اللجوء للعصا، أو اللجوء للشتم، أو استخدام كلمات الاحتقار، والسخرية.

قصص ضرب الطالبات أزعجتني وسببت لي مشاعر الألم والحنق، فمن تتأخر عن المدرسة وتصل بعد إغلاق الباب تقف في الشارع حتى دخول الطالبات للصفوف، وتحرم من حضور طابور الصباح، وتقوم الاختصاصية الاجتماعية بفتح باب المدرسة وكتابة أسماء الطالبات المتأخرات، ويكون عقابهن الحرمان من الحصة الأولى، وتنظيف ساحة المدرسة من الأوراق والمخلفات التي ترميها عادة الطالبات بإهمال في الساحة، وقد يتطور العقاب إلى تنظيف دورات المياه.

فكرة تحويل مسألة النظافة إلى عقاب، خطأ تربوي لم تقتنع إدارة المدرسة بالتخلي عنه، من تتأخر عن أية حصة ويدخل المعلم أو المعلمة قبلها قد تتعرض أيضا للضرب بالعصا على باطن كفها قبل السماح لها بالدخول للحصة.

أتذكر جيدا تلك الطالبة التعيسة التي كانت تحضر للمدرسة من قرية "جَدر" وهي قرية بعيدة إلى حد ما، تحتاج ما يقارب النصف ساعة من المشي السريع في طريق جبلية وعرة لتصل للمدرسة، وعادة ما تصل متأخرة فتتعرض للعقاب، حضورها للمدرسة كانت مغامرة كبيرة بالنسبة لها. هي تحب التعليم، وأخوها يشجعها على ذلك، رغم معارضة والدها لتعليمها، ولو يعلم والدها

بأنها تذهب للمدرسة فستتعرض لعقاب كبير، كان الأولى بالمدرسة أن تشجعها، وتسهل لها التعليم بدلاً من تعريضها للتقريع والعقاب الدائم، حاولت التوسط لها مع بعض المعلمين لإعفائها من العقاب نتيجة لظروفها الخاصة لكن دون جدوى. أحزنني كثيراً أنها في العام التالي اختفت ولم تعد تحضر للمدرسة ربما اكتشف والدها الأمر، أو قد تكون انسحبت بسبب الإهانات والضرب الذي كانت تتعرض له بشكل يومي، وقد تكون أسرتها زوجتها كما يحدث عادة في تلك المناطق التي لا ترى في تعليم الفتيات أية فائدة، والزواج هو المصير الطبيعي لكل فتاة.

وهناك تلك الطالبة في الصف السادس الابتدائي التي طلبت منها أن تنتظر بعد خروج الطالبات من الفصل، حتى لا أحرجها أمام زميلاتها، أردت أن اعرف ما سبب إهمالها الدائم في كتابة الواجبات، فلما اقتربت منها سارعت بحركة لا إرادية بوضع يديها أمام وجهها، وكأنها تحمي نفسها من ضربة محتملة، كان الخوف يطل من عينيها، فطمأنتها وتحدثت معها بهدوء وأعربت لها عن استغرابي، فهي تبدو لي فتاة ذكية ولا أفهم سبب إهمالها للواجبات المنزلية مما سيؤثر على درجاتها. الغريب أن أحوالها تغيرت تماما بعد ذلك وتحولت من طالبة مهملة لواجباتها لطالبة مهتمة بدروسها، وكنت ألمح في عينيها مشاعر الحب والتقدير، وكأن بعض الكلمات الطيبة وقليل من الحب والحنان هو كل ما كانت تحتاج له بدلا من سوء المعاملة التي تلاقيها باستمرار.

وحدث ذات يوم بينما كنت أمر بالقرب من الصف الأول الابتدائي في طريقي للإدارة، موقف جعلني أتوقف متسمرة في مكاني، وانعقد لساني فلم أستطع النطق مشدوهة مذهولة لهول ما أرى، معلمة للصف الأول الابتدائي

كبيرة في السن ممسكة بعصا تهوى بها على طفلة في الصف، تضربها في كل مكان والبنت الصغيرة تحاول حماية وجهها ورأسها بيديها الصغيرتين، لا أدري لماذا شعرت أنني تسمرت وتجمدت مكاني، توقفت المعلمة عن ضرب البنت عندما شعرت بوجودي، واتجهت بنظرها إلي ورفعت صوتها محاولة تبرير ما تفعل قائلة:

- البنت غبية ولا تفهم ولا فائدة منها.

وأضافت بثقة أن والد الطفلة أكد عليها أن تعتبرها كابنتها، وأوصاها أن تضربها إذا لزم الأمر.

لم أعلق أو بمعنى أدق لم أقو على التعليق، ولم أقل شيئا لقد اكتفيت بالتحديق في وجه المعلمة محاولة أن أبحث عن الإنسانة فيها، أو أن أجد أثراً للرحمة والشفقة. ولم أجرؤ على النظر للبنت الصغيرة التي كانت تبكي بصمت، واصلت طريقي صامتة متسائلة: "هل العقاب الجسدي يربي ويقوم السلوك، أم أنه يؤذي الطفل ويؤثر عليه؟

ماذا كان يدور في خُلد الطفلة ساعة تلقيها لتلك الضربات الموجعة؟

أي تعليم هذا الذي يهين، ويجرح ويترك ندوب غائرة في الذاكرة؟

هل المعلمة إنسانة طبيعية؟".

ولأني لا أقبل أن يضرب أحدهم طفلي فكيف أقبل أن أفعل ذلك بطالبة سواء كانت صغيرة أو كبيرة، لقد شعرت ذات مرة بأن الدم يغلي في عروقي وقلبي يهوي بين أضلعي وكأن الأرض تدور من تحت قدميّ عندما كان طفلي الصغير ذو الستة أعوام يحكي لي متردداً سبب وجود أثر بارز على ظهر كفه الصغير نتيجة ضربة عنيفة بالمسطرة من المعلم، والسؤال لماذا؟

نعم، أي ذنب ارتكبه طفل صغير لُيضرب ضربة يظل أثرها بارز بهذا الشكل المريع؟ وأي معلم هذا الذي يتحول إلى جلاد؟ وفي أي أكاديمية تربوية تم تأهيله للتعامل مع الأطفال؟ وهل يحق للمعلم من الناحية القانونية والتربوية أن يضرب الأطفال مهما كانت الأسباب؟ وما دور المدرسة، أو بمعنى أصح لماذا نذهب بأطفالنا للمدارس؟ هل المدرسة مكان آمن للأطفال في وجود معلمين يؤمنون بالعنف والقسوة كطريقة للتربية والتعليم؟ ولماذا نستغرب النسب العالية لتسرب الأطفال من التعليم؟

كنت أقع أحيانا في قبضة مشاعر متناقضة، عندما أضبط نفسي أصرخ أو الجأ لعقاب أحد أطفالي فيؤلمني ذلك، وتزعجني فكرة لماذا أنا لطيفة في المدرسة وتغيب هذه اللطافة في البيت!!

حصة الفيزياء

زارني موجه الرياضيات في السنة الأولى في حصة الجبر للصف الأول الإعدادي، لازلت أتذكره جيداً، كان ضخم الجثة بدينا بشكل ملفت للنظر، يمتلك شخصية ظريفة جداً، ويبدو أن صفة الظرف تلازم كل بدين، اختار أن يجلس في مقدمة الصف إلى جوار الطالبات، وطلب مني البدء بشرح الدرس.

ولأنها المرة الأولى التي يزورني فيها موجه وأنا معلمة جديدة، فلم أعرف ما الذي يجب أن أعمله بالتحديد في وجود الموجه، فحسمت أمري وقررت أن تكون حصة عادية. تعودت أن أتنقل بين الطالبات أثناء الدرس حتى لا أترك فرصة للطالبات في المقاعد الخلفية للسرحان، انسجمت تماما مع الطالبات لدرجة أنني نسيت تماما وجود زائر في حجرة الصف. دق الجرس معلنا انتهاء الحصة فوقف الموجه، وتحرك باتجاه السبورة، يا إلهي! لقد نسيته تماماً شعرت بالإحراج واعتذرت منه، كانت ابتسامة عريضة تملأ وجهه البشوش فقال بالعكس أنا شاكر لك وللطالبات، الحصة كانت ممتعة جداً.

في مكتب المديرة، وفي وجود بقية الموجهين للمواد الأخرى ومعلمي ومعلمات المدرسة ومديرة المدرسة، قام الموجه بتوجيه الشكر لي وامتدحني كثيرا أمام الجميع، وقال إنه لم ير معلماً للرياضيات يشرح بهذا الجمال، كانت كلماته مشجعه ومحفزة لي.

تدريس الجبر للصف الأول الإعدادي كان عملية ممتعة عكس تدريس الفيزياء للصف الأول الثانوي. المديرة سحبت مادة الفيزياء للصف الأول الثانوي من الأستاذ نبيل وكلفتني بتدريس المادة، الطالبات فضلن أن يبقى الأستاذ نبيل بالرغم من شدته وقسوته في التعامل معهن إلا أنهن تمسكن به، فهو معلم معروف بكفاءته وأنا معلمة جديدة ويمنية، مخاطرة لم تحب الطالبات خوضها. كان دخولي لذلك الصف يشبه الكابوس الثقيل، فالطالبات قررن التخلص مني بأي ثمن.

حدثت الأستاذ نبيل عن صعوبة التعامل مع الطالبات في الصف الأول الثانوي لكنه كان حاسما:

- دلع بنات...

قالها بكثير من الجدية وهو مقطب لحاجبيه، وشرح لي أن عدداً من الطالبات يحضرن إليه للشكوى بحجة أنهن لا يفهمن شيئا مني، لكنه يرفض التجاوب معهن.

وأضاف:

- سنقف أنا وأنت ضد رغبة البنات.

كان موقف الأستاذ نبيل نبيلا كاسمه، ساعدني لتجاوز تلك العقبة بموقفه ودعمه لي، من العجيب أنني لقيت دعما من الأساتذة المصريين في الوقت الذي وقفت ضدي المديرة والمعلمات اليمنيات.

يبدو أن مديرة المدرسة استمتعت بموقف البنات وكأنها تقول لي: " هل رأيت، أنت لا تملكين القدرة للتدريس في هذه المراحل".

في تلك السنة ظل الصف الأول الثانوي يشكل لي ضغطاً نفسياً شديداً، قبل كل حصة كان ينتابني شعور بالصداع المؤلم، وأشعر في كل مرة بأنني سأدخل معركة. وظلت علاقتي متوترة بالطالبات حتى نهاية العام الدراسي.

زارني - موجه العلوم والذي كان من سوريا- في حصة الفيزياء لذلك الصف المزعج...الأول الثانوي. في ذلك اليوم جرت الحصة بشكل كارثي في وجود الموجه، تعمدت الطالبات إحراجي بتوجيه أسئلة غريبة، وبشكل استفزازي الأمر الذي أربكني تماما، فتقدم الموجه للسيطرة على الوضع. كان لطيفا في معالجته للموقف، وبعد الحصة اجتمع بفريق تدريس العلوم في المدرسة، وفي نهاية الاجتماع طلب مني البقاء لأنه يريد محادثتي على انفراد، سألني إن كان هذا هو عامي الأول في التدريس.

-لا تقلقي كلنا مررنا بهذا الموقف في العام الأول للتدريس.

قال ذلك بطريقة لطيفة ومطمئنة. وأضاف:

-أريدك أن تعرفي أن هذا شيء طبيعي. عندما درست أنا ودخل الموجه للمرة الأولى احتبس صوتي وكانت فيه رنة بكاء، أنت أكثر شجاعة مني.

شعرت بالامتنان لطريقته في تهدئتي، وقلت له بشيء من التوتر:

-لكن الطالبات يرفضن وجودي.

-اثبتي لهن أنهن مخطئات، لا تنسي أنك المعلمة وأنك تعرفين أكثر منهن. أظهري لهن ذلك وتعاملي معهن بثقة أكبر. أنا واثق أنك ستفعلين ذلك، لن أذكر ما حدث اليوم في تقريري، وكلي ثقة أن الوضع سيكون أفضل في المرة القادمة.

قلت له للتوضيح:

- لا أواجه المشكلة نفسها في الصفين الأول الإعدادي، أو السادس الابتدائي.

- أنت الآن تدرسين رياضيات وعلوم؟

- نعم.

- عليك أن تختاري للعام القادم بين تدريس الرياضيات أو العلوم.

وقع اختياري على مادة الرياضيات، طبيعة المادة هي الأقرب لشخصيتي، وسبب آخر أن تدريس العلوم أو الفيزياء يحتاج لوجود معمل ووسائل تعليمية تسهل فهم الطلاب لحقيقة ما يتعلمونه؛ حتى لا تتحول الحقائق العلمية لطلاسم غير مفهومة أو مصطلحات يتم نسيانها بعد الاختبار لأن التعليم يتم بطريقة تلقينيه، ومعمل المدرسة كان شبه فارغ لا يوجد فيه سوى بعض اللوحات والمجسمات التعليمية البسيطة.

حصلت على تقدير ممتاز في العام الأول من قبل موجه الرياضيات السوداني. لكن المديرة لم يعن لها ذلك شيئاً، ولم يشفع لي عندها، فقط سمحت لي في السنة التالية أن أقوم بتدريس مادة الرياضيات كاملة جبر وهندسة للصف الأول الإعدادي، وأضافت لجدولي مادة الرياضيات للصف الخامس الابتدائي، حتى أتأسس في الرياضيات حسب ما قالته لي، وتجاهلت اعتراضي على ذلك.

بعد انتهاء زيارة الموجهين عادة يتسابق الكل لقراءة ملاحظات الموجهين التي سجلوها على كل معلم، أو معلمة، فكل موجه يكتب ملاحظاته على المعلمين الذين زارهم في دفتر كبير مخصص للملاحظات، وتلك الملاحظات كانت تسبب الكثير من الحساسيات والشعور بالغيرة والحسد، أو الشعور بالإحراج والغضب

من قبل البعض. بعض المعلمات كن يتمتمن بسيل من اللعنات والاتهامات للموجهين، وأن ما يكتبونه فيه تحيز وظلم.

ملاحظات بعض الموجهين كانت قاسية، ولأن الكل يقرؤونها، فكانت محرجة لمن تمسهم.

حصص العلوم

شرح دروس العلوم بشكل نظري والاكتفاء برسم أجهزة جسم الإنسان كما في الكتاب المدرسي، أمر غير مقبول من وجهة نظري. حصص العلوم تحتاج لمعمل بحيث تشاهد وتلمس الطالبة ما تتعلمه، الطرق التقليدية للتدريس التي تعلمنا بها لم تكن مجدية لأنها تجعل المادة العلمية مادة غامضة غير مفهومة، يتم حفظ المصطلحات والحقائق العلمية دون فهم وبمجرد انتهاء الاختبارات يتم نسيان كل ما تعلمناه، ولا يكون له أثر في حياتنا العملية.

وهذا ما نلمسه في واقعنا حيث لا فرق بين من تعلم العلوم في المدرسة وذلك الذي لم يسمع بتلك العلوم، الكل يعيش ويفكر بالطريقة ذاتها. لقد فشلت المدرسة في أن تحدث تغييرات في طريقة تفكير الناس وثقافتهم.

تدريس المواد العلمية بطريقة التلقين تجعل الطالب يفهم أشياء تختلف كلية عما يجب أن يفهمه في الواقع، فعلى سبيل المثال تعلمنا في مادة العلوم عن أثر المواد الحمضية أو القلوية على ورقة عباد الشمس. مصطلح عباد الشمس كان بالنسبة لي يعني تلك الزهرة الصفراء المسماة بزهرة عباد الشمس، وكنت استغرب جدا في حصص العلوم وأنا أتخيل زهرة عباد الشمس الزرقاء اللون وتلك الحمراء اللون، وبعد سنوات وفي معمل كلية العلوم بالجامعة عندما سلمني المعيد المصري ورق عباد الشمس للكشف عن مادة كيميائية ما، كانت دهشتي لا حدود لها وأنا اشير لتلك الوريقات الصغيرة واسأله بعيون متسعة اندهاشا واستغراباً:

- أهذه هي ورق عباد الشمس؟

فيصرخ في وجهي:

- "أنت، مالك مبلمة كده"؟

فتتردد في ذهني: "مبلمة"! نعم "مبلمة"، هل حقا هذه هي ورق عباد الشمس؟ يحق لي أن "أبلم".

سنوات وخيالي يرسم صورة لعباد الشمس الزرقاء والحمراء، ولم أفهم لماذا لون عباد الشمس في مصر أزرق وأحمر اللون- جنسية معلمي العلوم كانت مصرية في الغالب- أما عبارة قلوي وحمضي فلم يكن لها معنى بالنسبة لي.

لذا فكرت أن أقوم بتدريس مادة العلوم للصف السادس بطريقة مختلفة قدر المستطاع، منهج العلوم للصف السادس الابتدائي مكون من أجهزة جسم الإنسان المختلفة، فشرحت لبواب المدرسة أنني أحتاج أن يشتري من الجزار الرئتين – لعجل أو خروف- كاملة وسليمة مع القصبة الهوائية.

الحصة تمت بطريقة ممتعة بكل ما تعنيه الكلمة، رأت الطالبات بأعينهن الرئتين والقصبة الهوائية ولمسن أنسجة الرئة، تم نفخ الهواء عبر القصبة الهوائية لمشاهده كيف تتم عمليتا الزفير والشهيق، حتى الحقيقة العلمية عن أن حلقات القصبة الهوائية غير مكتملة الاستدارة لوجود المريء في الجهة الخلفية للقصبة الهوائية كانت واضحة ومفهومة وملموسة ليس للطالبات فحسب، بل بالنسبة لي – أيضاً-، وقطعن جزءاً من الرئة لرؤية الحويصلات الهوائية، وأجمل شيء أنني شاركت الطالبات الشعور بالمتعة خلال حصص العلوم، لم يكن هناك مصطلحات علمية يتم حفظها دون فهم، ولم يكن هناك غموض، أو سوء فهم.

وتكرر ذلك مع القلب والجهاز الدوري، والمخ، وتم الاكتفاء بالرسومات الإيضاحية لبقية الأجهزة لجسم الإنسان، مع الاستعانة بالمجسمات المتوافرة في المعمل. يكون التعليم ممتعاً ومفيداً عندما يكون مقنعا، واضحاً، يتيح للطالب الفرصة للوصول للحقائق، ولمسها، والاقتناع بها، عكس التعليم القائم على الغموض والتلقين.

بالرغم من أن مديرة المدرسة كلفتني بتدريس العلوم للصف السادس شعبة ج فقط، استمرت الشعبتين الأخريين (أ وب) مع الأستاذ جمال، وهو معلم مصري متمكن جداً، وله خبرة طويلة في التدريس، لم تواجهني مشكلة مع البنات في الصف السادس، ولم تكن هناك مقارنة بيني وبين الأستاذ من قبل الطالبات، كان الأستاذ جمال يدرس العلوم والرياضيات للصف السادس. حضرت معه في إحدى المرات حصة للرياضيات، وأدهشني بطريقة تعامله مع الطالبات وقدرته العجيبة لتحويل الصف لشعلة من النشاط. قناعتي أن كل معلم له شخصيته التي تميزه ومن الصعب تقليد أي معلم. شخصية المعلم كبصمة الأصبع لا تتكرر.

أمينة مكتبة

ذات صباح استدعتني المديرة، أبلغتني أن هناك دورة تدريبية من بداية الأسبوع القادم عن المكتبات وأنها رشحتني لحضور الدورة. عبرت لها عن دهشتي فما علاقتي بدورة تدريبية عن المكتبات وأنا أدرس مادة الرياضيات.

شرحت لي أن مكتبة المدرسة بحاجة لأمينة مكتبة متخصصة، ولم تجد أفضل مني. فهي تعرف أنني أحب الكتب والقراءة. أكدت لها أنني لا رغبة لي بأن أكون أمينة مكتبة، وأنني أفضل تدريس الرياضيات. أنهت النقاش بشكل حاسم، وأخبرتني أن لا مجال للتراجع لأن الترشيح قد وصل لمكتب التربية وعليه اسمي، وأعطتني عنوان المكان الذي ستقام فيه الدورة التدريبية. وأنهت كلامها بأن هذا لمصلحتي. خرجت من أمامها وأنا أحاول كظم غيظي. ولم أفهم ماهي مشكلتها بالضبط معي!

وفي الوقت المحدد ذهبت للمكان الذي ستقام فيه الدورة التدريبية، كان هناك عدد كبير من الأشخاص الذين تم ترشيحهم لحضور الدورة التدريبية عن المكتبات، جلست على أحد المقاعد أتفحص وجوه الحضور، مر الوقت بطيئا حتى جاء من يعلن عن حضور المسؤول من التربية لافتتاح البرنامج. المسؤول لم يلتزم بالحضور في الوقت المعلن عنه، ويبدو أن التأخير يعطي المسؤول جزء من الهيبة المطلوبة فالكل ينتظر حضوره، وكل شيء معطل حتى يتكرم بالحضور.

ولاحظت في كل الفعاليات التي حضرتها مستقبلا أن لا أحد يعطي للوقت أي أهمية.

القى ذلك المسؤول الأنيق كلمة ترحيبية، أكد على أهمية الدورة التدريبية، وأهمية عمل أمناء المكتبات في المدارس، واختتم كلمته بالتأكيد على الحاضرين أن اختيارهم تم بعناية، ولن يسمح بتسربهم، أو تحولهم لأعمال أخرى. فشعرت بالقلق، أي ورطة وجدت نفسي بها.

بعد أن أنهى كلمته القصيرة وكان في طريقه للمغادرة والحرس الخاص يحيطون به، استجمعت شجاعتي، واعترضت طريقه وأبلغته أن لا رغبة لي بحضور الدورة التدريبية لأنني أقوم بتدريس الرياضيات في مدرستي وأني مرسله من مكتب التربية معلمة للرياضيات، لكن مديرة المدرسة رشحتني للحضور دون علمي وضد رغبتي. اندهش كثيراً ووجه كلامه بغضب لأحد الأشخاص المرافقين له بأن هذه مهزلة ومخالفة للتعليمات. وسألته بدوري ماذا أفعل هل أحضر الدورة التدريبية أو أعود لمدرستي، أبلغني بالعودة للمدرسة.

شعرت بسعادة لا حدود لها، كاد قلبي يرقص فرحا. غادرت المكان سريعا كطير فتحت له أبواب قفص حُبس فيه وتنسم رائحة الحرية من جديد.

في صباح اليوم التالي ذهبت للمدرسة، ودخلت إلى الإدارة وسلمت على المديرة وأبلغتها بما حدث. نظرت إلي دون تعليق وخرجت من أمامها قبل أن تفيق من صدمتها لأمارس عملي كأي يوم عادي. لن أكون أمينة مكتبة، وهناك في المدرسة وظيفة على المديرة أن تبحث عمن يشغلها بعيداً عني. وبالمناسبة ليس في المدرسة مكتبة بالمعنى الفعلي لكلمة مكتبة، ما يوجد هو أرفف عليها القليل من الكتب والمجلات تم جمعها من بعض أولياء أمور الطالبات المتبرعين. وكانت

حصص المكتبة قد أوكلت لي لتكملة جدول حصصي، فكل معلم له عدد معين من الحصص (نصاب) لا يجب أن تكون حصصه أقل من ذلك. ولم تكن هناك حصص رسمية للمكتبة، لكن في حال تغيب أحد المعلمين أو المعلمات يتم تحويل الطالبات إلى المكتبة.

طابور الصباح

في ظل راية ثورتي
أعلنت جمهوريتي
يمني السعيدة منيتي
إني وهبتك مهجتي
بعزيمتي بإرادتي
حققت حلم الأمة
ومضيت نحو القمة
والله بارك وثبتي
هيهات شعبي يستكين
شعبي محا ظلم السنين
وأباد كل الظالمين
ليعيش مرفوع الجبين....

هذه كلمات النشيد الوطني الذي ترددده الطالبات كل صباح في الطابور المدرسي، كلماته من تأليف الشاعر أحمد العماري ولحنه الفنان الشهير علي بن على الآنسي، وهو نشيد الجمهورية العربية اليمنية اعتمد من عام ١٩٧٨م حتى مايو من عام ١٩٩٠م. بعد وحدة شمال وجنوب اليمن وقيام الجمهورية اليمنية تغيرت كلمات النشيد الوطني:

رددي أيتها الدنيا نشيدي

رددیه وأعیدي وأعیدي
واذكري في فرحتي كل شهيد
وامنحيه حللاً من ضوء عيدي
رددي أيتها الدنيا نشيدي
وحدتي.. وحدتي.. يا نشيداً رائعاً يملأ نفسي
أنت عهد عالق في كل ذمة
رايتي.. رايتي.. يا نسيجاً حكته من كل شمس
أخلدي خافقة في كل قمة
أمتي.. أمتي.. امنحيني البأس يا مصدر بأسي
واذخريني لك يا أكرم أمة
عشت إيماني وحبي أمميا
ومسيري فوق دربي عربيا
وسيبقى نبض قلبي يمنيا
لن ترى الدنيا على أرضي وصيا.

أصبح هذا هو النشيد الوطني الجديد الذي ترددده الطالبات كل صباح في فترة طابور الصباح، وكلمات هذا النشيد ألفها الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان، ولحنها الفنان أيوب طارش.

الدوام في المدرسة للمعلمين والمعلمات، يبدأ قبل طابور الصباح، ولابد أن يتواجد الجميع للتوقيع على "حافظة الدوام"، والتي يتم سحبها عندما يرن جرس الطابور. حتى إذا دخلت من باب المدرسة والجرس يرن فلن يكون من حقك التوقيع. فمهمة الحضور قبل أن يرن الجرس مهمة بالغة الصعوبة بالنسبة

لي، إنه الكابوس اليومي الذي يبدأ به كل صباح، ورغم تذمر الكثيرين لكن لم تصل تلك الاحتجاجات للمديرة. ذهبت إليها يوما لأشرح لها وجهة نظري في موضوع توقيت سحب حافظة الدوام، وجدوى الحضور للطابور لمن لا حصة أولى لديه، لم يكن هناك مجال للنقاش، كالعادة، فالقرار لا تراجع عنه. فقلت لها:

- ما الفائدة التي ستعود على الطالبات مثلا من حضوري للطابور؟

- الكل لابد أن يحضر الطابور. فالطابور جزء من الدوام.

قالت ذلك بحزم وهي تنظر إلى عيني مباشرة بطريقة تنهي أية محاولة للنقاش.

ذات صباح دخلت من باب المدرسة على عجل، طابور الصباح انتهى وبدأت الطالبات بالدخول للفصول، وتفاجأت بوجود المديرة واقفة أمامي، يا إلهي ياله من موقف مرعب، اقتربت مني وسألتني مؤنبة وهي تشير لساعتها:

- إلى هذا الوقت؟

- مديرتي هي مثلي الأعلى في الحضور للمدرسة.

كانت محاولة لتلطيف الجو، فأعجبها قولي إنها مثلي الأعلى، وقالت:

- نعم مديرتك مثلك الأعلى؛ لكن ليس في التأخير.

كنت مقتنعة أن طابور الصباح لا فائدة منه، تذكرت أيام الدراسة وأنا طالبة لم أكن أهتم بطابور الصباح وكنت أنتظر متى ينتهي. تحية العلم والبرنامج الاذاعي لا أظن أنه يضيف شيء للطالب. وخطر ببالي سؤال: من الذي اخترع طابور الصباح؟ وهل هو نظام متبع في كل مدارس العالم؟ أم هو اختراع عربي؟

دار نقاش مع بعض المعلمات حول طابور الصباح، تضاربت الآراء، وارتفع صوت من لم تستسغ فكرة إلغاء طابور الصباح، واستغربت كيف ستبدو المدرسة

دون طابور صباحي. وأخرى احتجت على الفكرة وشرحت لنا الفوائد العظيمة لطابور الصباح:

- طابور الصباح مهم جدا لبداية اليوم الدراسي فهو ينشط ويحفز الطالبات لليوم الدراسي.

حجة غير مقنعة، تقرأ ذلك في ملامح وجهي، فتسترسل:

- الطابور الصباحي فرصة لإظهار مواهب الطالبات، وغرس حب الوطن عبر ترديد تحية العلم، واعلان تعليمات الإدارة...

الطابور الصباحي يناسب المعسكرات ولا يناسب المدارس، هذه وجهة نظري، وغرس حب الوطن لا يكون بترديد التحية، هناك طرق أخرى أكثر فائدة، أما التمارين الرياضية ومن ملاحظاتي اليومية فأغلب الطالبات لا يؤدينها، ولا يشعرن بفائدتها.

حلمت أن يتم عمل استفتاء لمعرفة عدد الطالبات المؤيدات لبقاء الطابور الصباحي. ولازال موقفي من الطابور لم يتغير فهو وسيلة للسيطرة والتلقين، تجد إدارة المدرسة فيه وسيلة لإملاء تعليماتها دون نقاش، والطابور فرصه ليمسك أحد المعلمين أو المعلمات بالميكرفون ليبدأ مسلسل توجيه الاهانات والتهديدات للطالبات.

ينتهي الدوام المدرسي بعد أن يرن الجرس معلنا انتهاء الحصة السادسة. الكل ملزم بالبقاء إلى نهاية الدوام.

لم تكن هناك مرونة في التعامل مع المعلمات بحيث تستطيع المعلمة مغادرة المدرسة طالما انتهت الحصص في جدولها وليس عليها حصة إشراف، أو حصة

احتياط في حال غياب أحدهم أو إحداهن. وكان ذلك يسبب الضيق للمعلمات خاصة اللواتي لديهن أطفال صغار يدرسون في الفترة المسائية.

وعانيت من هذه المشكلة، ففي السنة الأولى لعملي بالمدرسة ابني الصغير دخل الصف الأول الابتدائي، ورفضت المديرة تسجيله رسميا لأن عمره خمس سنوات ونصف، والعمر الرسمي للتسجيل في المدارس هو ست سنوات، وقالت لي أنها ستقبل بوجوده في الصف مستمع فقط، أي لن يكون طالباً رسمياً وبالتالي لن ينتقل في نهاية العام الدراسي للصف الثاني، وسيتم تسجيله رسميا في العام القادم، وعندما حصل على المركز الأول في كل الاختبارات وافقت على استلام ملفه وتسجيله في الصف الأول.

في العام التالي رجوتها أن تفتح شعبة للصف الثاني الابتدائي بدلاً عن شعبتين للصف الأول الابتدائي لكنها لم توافق وواجهتني مشكلة كبيرة، فالمسافة بين البيت والمدرسة لم تكن قصيرة، وبالتالي كان على طفلي الصغير أن يذهب لمدرسة البنين القريبة من البيت قبل أن أصل للبيت لأن دوام الفترة المسائية يكون مباشرة بعد دوام الفترة الصباحية. ورفضت المديرة كل محاولاتي للخروج من المدرسة قبل الحصة السادسة بالرغم من موافقة بعض المعلمات على تبديل الحصص معي. وكم هو مؤلم أن أبقى في المدرسة وقد انتهت حصصي- وأفكر بطفلي الصغير واشعر بقهر الدنيا، كانت تردد إحدى المعلمات معبرة عن مشاعر القهر الذي تشعر بها: "حكم القوي على الضعيف".

حاولت المعلمات في إحدى المرات إقناع المديرة بالسماح لهن بفتح أحد الفصول المغلقة وتحويله إلى حجرة حضانة لأطفالهن الصغار، وتعهدن بفرشه وإحضار الألعاب للأطفال، ودفع مبلغ لإحدى عاملات النظافة لتبقى مع

الأطفال. رفضت المديرة وبشدة، واعتبرت هذا الإجراء سيسبب إرباكاً في المدرسة. كانت ابنتي تحضر معي إلى المدرسة وهي في سن الحضانة وكانت المديرة تحضر ابنتها -أيضا- لذا كانت تتغاضى عن وجود ابنتي خاصة وأنها لم تكن تسبب أي إزعاج في المدرسة، في تلك الفترة لم يكن هناك دور للحضانة في العاصمة ولا في مدينة الروضة. في العام التالي أدخلت ابنتي صف الأبلة سامية التي كانت تتقن تدريس الصغار، فأسلوبها رائع رغم لجوئها للصراخ في بعض الأحيان.

كان الشعور السائد عندي أن مهمة المديرة هي تعقيد حياة المعلمات بكل الطرق الممكنة، فما المانع لفتح غرفة لتكون مكاناً لوضع الأطفال في المدرسة، كان ذلك الأمر سيخفف من معاناة المعلمات الأمهات، لكن وجهة نظر المديرة أن ذلك سيكون فرصة لتهرب المعلمات من الحصص والذهاب لرؤية أطفالهن، لم تكن تلك حجة مقنعة للرفض لأن وجود حضانة كان سيجعل المعلمات أقل قلقا وتوتراً بدلا من البحث المضني كل يوم عمن يهتم بأطفالهن...

حدثت قصة محزنة لإحدى المعلمات المعارات، كان لديها طفل صغير وكان حصولها على عقد إعارة لليمن يعد بمثابة حلم بالنسبة لها كما هو بالنسبة لغيرها، زوجها لم ينجح في الحصول على عقد مماثل، فجاء مع زوجته وطفله لليمن على أمل أن يجد عقداً محلياً، وجاءت الظروف بعكس ما كان يأمل، فكان عليه البقاء في البيت للاهتمام بالصغير.

كانت المعلمة تترك رضيعها مع زوجها وتحضر للمدرسة بدوام كامل لا مرونة فيه، مما سبب لها مشكلة مع زوجها الذي تأثرت أحواله النفسية بسبب عمل زوجته وبقائه في البيت يرعى الطفل فبدأ الخلاف ينشب بينهما بشكل

يومي. وكان يفسر كلامها وتصرفاتها بأنها نوع من الإذلال له والتقليل من شأنه لأنها هي من تعمل وهو قاعد في البيت يرعى طفلها. في أحد الأيام انهارت في المدرسة وشرعت بالبكاء الحاد وهي تشرح لنا معاناتها اليومية مع زوجها، وكيف أنها تعود للبيت وزوجها لم يغير الحفاظ للطفل ولم يعطيه قنينة الحليب، ولو عاتبته ينفجر صارخا بأنه الأب وليست هذه من مهامه. المسكينة توصلت لقرار مؤلم جدا من أجل سلامة طفلها فعليها أن تلغي العقد وتعود لبلدها. لم تتأثر المديرة بقصة تلك المعلمة وتوافق على فتح الحضانة بل القت باللوم على الأب الظالم والذي نعتته بشتى أنواع النعوت والصفات السيئة وانتهى الأمر.

إن السماح بفتح مكان للعب ونوم الأطفال الصغار في أماكن العمل هو إجراء إنساني قبل كل شيء، ومن يتحجج بأن على الأم البقاء والتفرغ في البيت لا يقدر الظروف التي تعيشها تلك الأمهات، فكلما تطلبه هو مكان آمن تطمئن فيه على طفلها؛ لتؤدي عملها دون قلق. وعندما يكون المدير الذي يرفض هذا رجلاً ربما نتفهم ذلك لكن أن يكون المدير امرأة فهذا شيء غريب إلى حد كبير وغير مفهوم. خاصة إذا كان بإمكان إدارة المدرسة توفير ذلك المكان بمبالغ لن تمانع الأمهات في دفعها ويكون مصدراً إضافياً لميزانية المدرسة، لكن مديرة المدرسة رفضت أي نقاش حول الأمر. وكان هذا الرفض قاسيا وغير مبرر.

أسئلة الاختبار

طلبت المديرة من الجميع تسليم نموذجين لأسئلة الاختبار، مع نماذج الإجابات، ووضع توزيع للدرجات لكل جزء من الإجابة قبل موعد الاختبار بوقت كافٍ، ليكون أمامها وقت لتختار النموذج الذي تراه مناسبا لتتم طباعته قبل الاختبار، فمدت يدها لأخذ أسئلة اختبار العلوم للصف السادس الابتدائي، وأسئلة الفيزياء للأول الثانوي؛ لكنها أعادت لي المظروف الخاص بأسئلة الجبر للصف الأول الإعدادي وقالت لي:

- اعرضي الأسئلة أولا على الأستاذ محمد لمراجعتها، ثم أعيديها، لا تنسي أن هذه أول مرة تضعين فيها أسئلة اختبار للرياضيات ستستفيدين كثيراً من ملاحظات الأستاذ محمد.

لم أعلق على كلامها، فهي تستمتع بتذكيري بأني معلمة جديدة وتخصصي- ليس تربوياً، فهززت رأسي بالموافقة وغادرت الإدارة، وفي الممر قابلت الأستاذ محمد، سلمت عليه وشرحت له طلب المديرة ومددت يدي بظرف الأسئلة ليأخذها، قال وهو يبتسم بأدب جم:

- لن آخذ الأسئلة منك أبلة أحلام، لا تسمحي لأحد بان يهزمك أبداً أبداً، قولي للمديرة بأنني أخذت الأسئلة وراجعتها، ولو سألتني سأقول لها الكلام نفسه.

وأضاف:

- أنا على ثقة تامة بأنك أفضل مني، لا تسمحي لها أن تزعزع ثقتك بنفسك.

ونظر بعمق في عيني، كأنه يريد أن يتأكد من أن مـديرة المدرسـة لم تهزمنـي بموقفها تجاهي، كانت نظراته تحمل وداً عجيباً، كانت تحمـل شـحنة قويـة مـن الثقة، لم أدر ما أقول له، اكتفيت بالسكوت وقد ترك موقفه أثراً غير عادي عـلى نفسيتي، وتمتمت بكلمات الشكر وانصرفت، كان ذلك من المواقف التي لا تنسى بالنسبة إلي.

في اليوم التالي سلمت المديرة المظروف، تناولته وهي تسألني:

- هل راجعها الأستاذ محمد؟

أجبت بفتور:

- نعم.

استدرت وخرجت مسرعة من أمامهـا. هـي اختـارت ان تكـون علاقتنـا رسمية وباردة، وبقيت علاقتنا دوما رسمية وباردة.

المديرة سميرة والتي كانت زميلة سابقة لي في المرحلة الثانوية، لم أرهـا بعـد التخرج من المدرسة. عرفت فيما بعد أنها تزوجت بعد الثانوية، وعملت معلمة في فصول محو الأمية المسائية، وفي الوقت نفسه التحقت بالجامعـة طالبـة منتسـبة، ودعم زوجها تعيينها مديرة للمدرسة فور تخرجها من الجامعة. زوجها الأستاذ حميد هو مدير مدرسة البنين القريبة من مدرسة البنات التي تعمل فيها زوجته، لم تكن سميرة بحاجة للذهاب للوزارة أو مكتب التربية بالمحافظة لمتابعة أي أمر من الأمور الخاصة بالمدرسة، فزوجها كان يتابع أمور المدرستين معا، ومن المعتاد أن نراه دائما في المدرسة يتابع أية مشكلة أو أي أمر يحتاج للعرض على مكتب التربية. الأستاذ حميد دمث الأخلاق، شديد التواضع، يتعامل ببساطة مـع الجميـع دون تكلف أو رسميات، عكس زوجته التي تتعامل برسميه وبحزم مع الجميع.

في بداية العام الدراسي التالي والذي يبدأ دوام المعلمين فيه قبل دوام الطلاب بأسبوعين تقريبا، أعلنت المديرة عن موعد الاجتماع الاول. بعد الترحيب بالجميع والاعلان عن التعليمات الجديدة من مكتب التربية، طلبت من كل معلم ومعلمة أن يخبرها بالفصول التي يرغب بتدريسها قبل أن يقوم معلم الرياضيات الأستاذ محسن بتجهيز جدول الحصص الأسبوعي.

بدأ الحديث حسب ترتيب جلوس الجميع عندما جاء دوري للحديث أشارت المديرة بوضوح للمعلم الذي يليني بالحديث، استغربت فأشارت لي بالانتظار. في الأخير وجهت كلامها لي بأن جدولي سيتكون من حصص الرياضيات للصف الأول الإعدادي بشعبه الثلاث إضافة لحصص الرياضيات للصف الخامس.

- لكنني أفضل أن ادرس طالبات السنة الماضية وهن- الآن- في الثاني الإعدادي...

قلت ذلك معترضة على قرارها وهو حقي أسوة ببقية المعلمين، لكنها نظرت بهدوء ناحيتي وقالت:

- أنت لم تدرسي السنة الماضية سوى الجبر. هذا العام ستدرسين منهج الرياضيات كاملاً، جبر وهندسة والعام القادم بإذن الله إذا كتب الله لنا الحياة ستدرسين الرياضيات للثاني الإعدادي.

وافقت على مضض رغم أنه لم يكن أمامي مجال للاختيار لكنني سألتها عن حصص الرياضيات للصف الخامس الابتدائي، فقالت موضحة:

- لقد وضعتها لك متعمدة، ستشكرينني بكل تأكيد على هذا، هو لمصلحتك صدقيني، هذه الحصص ستؤسسك جيداً في أساسيات الرياضيات.

ليس من السهل أن يكتم المرء غضبه، وأن يخفي علامات الغيظ، أو أن يمنع نفسه من الثوران. لكنني فعلت ذلك رغم الشعور بالغليان الذي شعرت به. تبا لها تريد أن تنسب لنفسها فضل إعدادي وتأسيسي. تنفست بعمق وقلت لها:

- لكنني العام الماضي حصلت على تقدير ممتاز من موجه الرياضيات أليس هذا كاف؟

رددت كلامها السابق بهدوء:

- ستشكرينني على هذا يوما صدقيني!

في ذلك العام كانت حصص الرياضيات للصف الخامس تشبه الكابوس الثقيل، التعامل مع الطالبات الصغيرات يحتاج لصبر وحكمة، أو قسوة، فأساليب تدريس الصغار يختلف عن أساليب تدريس الكبار. منهج الرياضيات للصف الخامس مكتظ بكثير من قواعد الرياضيات. نسبة الرسوب في الرياضيات عادة مرتفعة بسبب عدم التوازن في المنهج. وهي مشكلة تتكرر كل عام دون حل. وبسبب ذلك المنهج المكثف تنتقل فوبيا الخوف من مادة الرياضيات لكثير من الطلاب بعد المرور بالصف الخامس. هي فترة عقابية لابد منها، لتشعر مديرة المدرسة أنها انتصرت. هل كانت تنتظر مني أن اشتكي وأراجعها لتعفيني من تلك الحصص! لست متأكدة لأنني واصلت التحدي حتى آخر العام دون شكوى، وعندما كانت تسألني عن المنهج والتعامل مع الطالبات كنت أجيبها بهدوء قدر المستطاع، بأن كل شيء على مايرام. وكانت تتابع آراء الطالبات وتتأكد من رضاهن عني.

مشكلة الطالبات مع الرياضيات، لها علاقة بسياسة التعليم التي تكلف المعلم صاحب الخبرة والتأهيل الأعلى بتدريس الفصول الأعلى، والمعلم قليل الخبرة والأقل تأهيلا يكلف بتدريس الفصول الأولية، وقد يكون في بعض الأحيان كنوع من العقاب والتقليل من شأن ذلك المعلم. إضافة إلى أن الفصول الأولية يتم تدريسها في الفترة المسائية بسبب قلة عدد المدارس وتكون كثافة أعداد الطلاب في الفصول المسائية أكبر، والتعليم في الفترة المسائية تعيس حيث لا اهتمام ولاجدية، لهذا من الطبيعي أن يكون الطالب في المراحل الإعدادية والثانوية يعاني من مشكلات مع أساسيات الرياضيات واللغة العربية

أمين الصندوق

في نهاية الأسبوع الأول من الشهر الجديد نستلم المرتبات، يحضر أمين الصندوق مع مساعد له حاملا دفتر وأوراق بها كشوفات بأسماء العاملين اليمنيين في المدرسة ابتداء من مديرة المدرسة وحتى عاملات النظافة وحارس المدرسة، ومساعده يحمل كيس كبير به رزم المبالغ المالية. وتبدأ عملية تسليم المرتبات في غرفة الإدارة، وقفت أمام أمين الصندوق لاستلام راتبي الشهري، بحثت عن اسمي في الكشف، واشار بإصبعه كي أوقع على استلام الراتب، وانا أوقع لمحت المبلغ الذي سأستلمه، كان يزيد بضعة عشرات من الريالات عما يتم تسليمي في كل مرة، سألت أمين الصندوق كيف أوقع على استلام مبلغ، وأستلم مبلغاً أقل. نظر إلي شزراً ولم يرد.

ناقشت الموضوع مع المعلمات فوافقن على أنه ابتداء من الشهر القادم نرفض جميعنا التوقيع على الاستلام، ونطالب باستلام الراتب كاملا، وعندما جاء يوم استلام المرتبات في الشهر التالي قلت ذلك لأمين الصندوق، فنظرت المديرة باتجاهي باندهاش:

- أنت تقولين هذا؟ كم هو المبلغ المقطوع؟ أنه لا يستأهل أن تحرجي نفسك لأجله.

- هذا المبلغ حق لي سواء أكان كثيراً أو قليلاً، والأمانة تقتضي أن استلم المبلغ الذي أوقع على استلامه كاملا، وفي حالة احتياجكم للمبلغ وطلبه منا نعطيه لكم باختيارنا.

قالت المديرة بكثير من السخرية:

- لو جاء هذا الكلام من غيرك ربما تفهمت لكن أنت...
- لست وحدي هذا موقف كل الزميلات...

قلت ذلك بكل ثقة، والتفت باتجاه المعلمات اللاتي وافقن وأكدن لي سابقا أننا جميعا سنقف هذا الموقف، ويا لدهشتي فقد وجدت أنهن يحاولن ألا ينظرن إلى عيناي، كن صامتات، ولم تنطق أي منهن بكلمة تؤكد صحة كلامي. الجبن كان سيد الموقف.

- من الواضح أن هذا موقفك أنت فقط. اسمعي المبلغ لا يستحق كل هذه الضجة، وأنت لست بحاجه له، ولن يؤثر عليك الاستغناء عنه. كم المبلغ، ثلاثون ريالاً؟ من المخجل أن تطالبي به، ولعلمك هذه المبالغ الصغيرة تعين أمين الصندوق؛ لأنه يحدث عنده عجز أحيانا في المبالغ المالية.

وأسهبت المديرة في محاضرتها الأخلاقية الموجهة لي، وبدوت في موقف المعلمة المشاغبة المثيرة للمشكلات، ووجدتني أوقع أمام اسمي واستلم المبلغ الناقص وأنا اشعر بغيظ شديد، ولم تفتني ملاحظة الابتسامة الساخرة على وجه أمين الصندوق. سؤال واحد كان يدور ساعتها في رأسي، ماذا حدث للاتفاق الذي وافقت المعلمات جميعهن عليه؟ أحتاج أن أسمع تفسيراً لموقفهن الغريب هذا؟ لقد اتفقنا وكن جميعهن موافقات ومقتنعات ومتحمسات، أين ذهب ذلك الحماس؟ لم تراجعن؟ ولم لم تخبرنني بتراجعهن؟

استغلت المديرة ذلك الموقف لتؤكد أنني أحب إثارة الفوضى في المدرسة، وهذا غير مقبول، لم أرد عليها، حاولت لفترة غير قصيرة أن أجد تفسير لموقف المعلمات، لم أستطع أن أقبل تبريراتهن أبداً، لماذا قبلن الأمر من الأساس، ألم يكن

من الأفضل أن يرفضن الوقوف معي صراحة؟ وعرفت أن ثقتي بهن ليست في محلها. حاولن أن يبررن موقفهن بأن المديرة قادرة على إنزال العقاب بهن وخصم جزء من رواتبهن وهذا سيكون عقاب قاس، فهن بحاجة لكل ريال في المرتب. لم يكن التبرير مقنعاً لما حدث، لكنه علمني درساً.

مديرة المدرسة كانت تسيطر على الجميع، وتهديداتها الخفية تجعل المعلمات يخضعن لقوانينها دون احتجاج، قد يعبرن أحيانا عن ضيقهن، لكن ذلك يتم بعيداً عنها كنوع من التنفيس عن غيظهن لكنهن ينفذن كل ما تريده دون نقاش.

أنا الوحيدة المتمردة بنظر المديرة، هي تدير المدرسة بالطريقة التقليدية، إدارة متسلطة لا تقبل أي نقاش لقراراتها، حتى تلك القرارات الظالمة أو الغريبة. بمعنى أكثر دقة، المديرة تتعامل مع الجميع وكأن المدرسة ملك خاص لها، بكل من فيها، وعلى الجميع الخضوع والتسليم وتأييد كل ما يصدر منها دون احتجاج أو طلب تفسير، والعجيب أن الجميع موافق على هذا. ولا قيمة لتلك الاحتجاجات التي تتم من ورائها.

سألتني المديرة ذات يوم، وهو سؤال تكرر منها في مناسبات متعددة:

- لم تشتغلين يا أحلام؟ أنت لست محتاجة للمرتب مثلي. لو كنت مكانك لبقيت في البيت وما أتعبت نفسي بالعمل.

ولم أرد على سؤالها، فهو لم يكن سؤالاً حقيقياً، كنت أشعر أنها تعبر عن نوع من الاستغراب وحسب، ولا تنتظر جواباً، وأي جواب سأقوله سيفتح باباً لنقاش غريب، فأي رأي يخالف قناعاتها يصبح مجال للسخرية والنقد. وقد يكون سؤالها نوع من التعبير عن رفضها لوجودي في مدرستها.

من العجيب أن أمين الصندوق ذهب للحج في إحدى السنوات التالية، ربما ليطلب من الله- سبحانه وتعالى- أن يغفر له ما مضى من ذنوبه، لكن ذهابه لأداء فريضة الحج لم يردعه بكل تأكيد عن اقتطاع المبالغ من المرتبات بعد عودته للعمل، فلا رابط بين ما يقوم به وبين أخلاق أو منهيات الدين الذي يجيد أداء طقوسه بكل احترافيه. وفي ظل صمت المعلمات يكون هو صاحب الحق.

في سنوات لاحقة أصبح تسليم المرتبات يتم عبر مكاتب البريد، لكن موضوع اقتطاع المبالغ الصغيرة ظل تقليدا متبعا في الغالب، الموظف الذي يسلم المبلغ كاملا يبدو غريبا ويدهشني وكأنه قام بفعل عجيب.

الكونترول

أيام الاختبارات النصفية للعام الدراسي، أو النهائية يكون الوضع مجهدا بشكل كبير، فالعمل في المدرسة يتخذ شكلاً مختلفاً. ينتهي التدريس، لا جدول للحصص، هناك جدول للاختبارات، وتبدأ أعمال مراقبة للطالبات في لجان الاختبارات.

في بعض الأيام هناك فترتان للاختبارات، والفاصل الزمني بين الفترتين قليل. ما أن ينتهي زمن الاختبار حتى تبدأ أعمال لجان التصحيح، التي تتكون من معلمي المادة نفسها، ويبدأ العمل بعد انتهاء زمن الاختبار للمادة الخاصة بكل لجنة. تنتقل أوراق اختبار الطالبات من أيادي المراقبين إلى حجرة الكنترول، لحظات وتخرج الأوراق بعد إزالة أسماء الطالبات ووضع أرقام سرية على تلك الأوراق. أرقام سرية حتى لا يستطيع المعلم تمييز ورقة الإجابة للطالبات، وهكذا يكون التصحيح محايداً ومتساوياً لجميع الأوراق. مع أن تمييز خط صاحبة الورقة يكون سهلاً لكننا نتظاهر أننا لا نعرف ذلك.

في الأيام التي يكون فيها اختبار مادة الرياضيات لأي صف، على معلمي الرياضيات أو لجنة الرياضيات البقاء في المدرسة، والانتظار لاستلام أوراق الإجابة بعد وضع الأرقام السرية عليها. يتم توزيع تصحيح الإجابات بين المعلمين حسب عددهم، وعدد الأسئلة، ويكون هناك نموذج للإجابة على المعلمين الالتزام بأن تكون إجابات الطالبات قريبة من إجابات النموذج، ويلتزم

المصححون بوضع الدرجات على الإجابات بحسب النموذج الذي يكون معلم المادة وضعه مسبقا مع أسئلة الاختبار.

في اليوم الذي يكون فيه اختبار لمادة الرياضيات تصبح فكرة العودة للبيت مستحيلة، فالوقت لا يسمح بالذهاب للبيت والعودة، وبالتالي يوم اختبار مادة الرياضيات بالنسبة لي يعني البقاء في المدرسة حتى وقت غروب الشمس في بعض الأيام، يعتمد ذلك على عدد الطالبات، وعدد أسئلة الاختبار، وإذا لم تنته اللجنة من تصحيح كل الأوراق، رئيس اللجنة يسلم الأوراق مرة أخرى للكنترول على أن يتم استلامها لاستكمال التصحيح في اليوم التالي بعد انتهاء زمن الاختبارات. هي فترة متعبة للجميع ومربكة أيضا، فخلال أيام التصحيح يتغير كل شيء. فمطلوب مثلا أن أقوم بالطبخ ليلا ليكون هناك أكل لزوجي وللأطفال، وهناك معضلة التفكير أين سيقضي الأطفال وقتهم وأنا في المدرسة. هي فترة رهيبة بكل المقاييس.

في العام الثالث لعملي في المدرسة أخبرتني المديرة بأنني سألتحق بأعضاء الكونترول في فترة الاختبارات. يا للخبر المفرح، فعضو الكونترول يعفى من مهمة المراقبة للاختبارات، وكذلك يعفى من تصحيح الاختبارات النصفية والنهائية بسبب انشغاله بأعمال الكونترول. ويمكن أن يعود للبيت، ويتفق مع زميل آخر أن يستلم الأوراق من المصححين حتى يعود.

العمل في الكنترول يتطلب وضع أرقام سرية على ورق إجابات الطالبات لكل مادة بعد انتهاء الاختبار، عضو الكنترول يسلم أوراق إجابة الطالبات في مادة معينة للجنة التصحيح بعد إزالة أسماء الطالبات ووضع الارقام السرية، وبعد انتهاء تصحيح إجابات الطالبات ووضع الدرجات على الأوراق يقوم

عضو الكونترول بإعادة الأسماء المطابقة لكل رقم سري، وتبدأ مهمته برصد درجات تلك المادة لكل الطالبات، تتم هذه العملية ضمن آلية يتم التدريب عليها، وتنتهي العملية بإظهار النتائج لكل الطالبات. حددت المديرة مهمتي برصد درجات الصفين الأول والثاني الإعدادي.

المهمة لم تكن شاقة لكنها طويلة.

بينما كنت أقوم بعملي الروتيني برصد درجات الطالبات للمواد التي أنهى المعلمون والمعلمات تصحيحها، دخل وكيل المدرسة لغرفة الكونترول – كان المعمل عادة يستخدم كغرفة للكونترول- ليسألني عن درجات إحدى الطالبات، هي ابنة صديق له، يريد أن يطمئن على نجاحها في المواد التي تم تصحيح أوراق إجاباتها ورصد درجاتها في السجلات. الطالبة لم تنجح في بعض المواد. شعر أبي عبد الله بالاستياء وشكرني ثم غادر. كنت منشغلة برصد الدرجات عندما دخلت المديرة وجاءت لتجلس على أحد الكراسي أمام الطاولة التي كنت أعمل عليها. وجهت كلامها إلي بغضب:

- من يعمل في الكنترول لابد أن يكون أمينا، ولا يذيع أسرار العمل خارج هذه الغرفة.

نظرت إليها باستغراب، فتابعت:

- عادة ترسب بعض الطالبات في مادة أو أكثر لكن نستطيع إعادة النظر في الدرجات، ونرفع درجاتها فتنجح، لكن بالنسبة للطالبة التي نشرت أمر رسوبها لن نستطيع أن نفعل لها شيئا.

- أنا لم أنشر أي درجات.

- ألم تخبري أبي عبد الله بدرجات الطالبة نوال؟

- هذا وكيل المدرسة وجاء يسألني، كيف أرد عليه؟ وله الحق بالدخول للكنترول مثلك.

تجاهلت كلامي، وتابعت كلامها مؤنبة:

- سامحيني لقد أثبتي بتصرفك هذا أنك لست أهلاً للعمل مع فريق الكونترول، لا أحد في الفريق يعلن درجات الطالبات قبل انتهاء عملية الرصد، وأنت من حكم على هذه الطالبة بالرسوب.

لم أفهم موقف المديرة الغريب، فقلت لها بكثير من الهدوء:

- الدخول للكنترول ممنوع، لكنه مسموح لوكيل المدرسة ولك فقط، وهذا يعني أن لكما الحق بالاطلاع على النتائج.

لكنها تصرفت كأنها لم تسمع كلامي الأخير فوقفت وهي تنظر إلي بنظرة حادة، ثم غادرت المكان. كانت الطاولة المخصصة لعملي وأوراقي قريبة من تلك المخصصة لفيروز التي تعمل في الكنترول هي أيضا، فهل كانت هي من أبلغت المديرة بزيارة أبي عبد الله وسؤاله عن درجات الطالبة؟

اقتربت مني بعد خروج المديرة وألقت بعض النصائح بخصوص أخلاقيات من يعمل في مكان مهم وحساس مثل الكنترول، وامتدحت نفسها بشدة على أمانتها وحرفيتها في عملها. كانت إلى حد ما تشبه أسماء ومصابة بذات الداء.

بعد الانتهاء من رصد جميع الدرجات لكل المواد، يتم رصد النتائج في كشوفات خاصة بكل صف دراسي وتقديم تلك الكشوفات للمديرة. المديرة تعيد النظر في الكشوفات، يحق لها أن تقلل من نسبة الرسوب في المدرسة بإضافة درجات لبعض الطالبات خاصة من ترسب في مادة أو مادتين وأحيانا ثلاث مواد حسب ما تراه مناسباً. ومن مصلحة المديرة أن تكون نسبة النجاح في المدرسة

مرتفعة فذلك يعزز من موقفها في مكتب التربية على ما يبدو. وتعاد الكشوفات لنا من جديد لكتابتها بالـدرجات التـي تـم تعـديلها وتقليـل عـدد الطالبـات الراسبات. تتم كتابة ثلاث نسخ لكل كشف، نسخة للمدرسة ونسختين لمكتب التربية.

أما الطالبة نوال فقد رفضت المديرة أن تضيف لها أية درجة ولتبقى راسـبة وتعيد السنة. شعرت بالأسف من أجل تلك الطالبة تعيسة الحظ. وفهمت كيف ينجح طلاب كنا نتوقع رسوبهم. وفي العام التالي لم تعد المديرة تكليفي بالعمل في الكنترول، وعدت لأعمال المراقبة والتصحيح.

قرار معلم أول

يزور المدرسة أحد الموجهين في فترة الاختبارات النصفية أو النهائية لمتابعة سير الاختبارات ومراجعة عمليات تصحيح إجابات الطالبات، وذات يوم كنت في معمل العلوم بالمدرسة مع الأبلة فيروز، في فترة اختبارات نصف العام وكان أحد الموجهين في المدرسة يتابع سير الاختبارات وأعمال الكونترول. يومها كنت أعمل في الكنترول.

الموجه زميل دراسة سابق، درس معي في الجامعة بعض مواد الرياضيات، كان طالب في كلية التربية تخصص رياضيات، في تلك الفترة لم يكن هناك مبنى خاص بكلية التربية، وطلاب التربية يتم توزيعهم على الكليات بحسب تخصصاتهم.

وجه كلامه إلي مستفسرا:

- كم مضى عليك في التدريس أبلة أحلام؟

أجبته بأنه مر تقريبا ثلاث سنوات، فأخبرني أن من حقي متابعة حصولي على قرار معلم أول إذا كانت نتائج زيارات الموجهين لي تتراوح بين ممتاز وجيد جدا. وأخبرني أن علي متابعة مكتب التربية بهذا الخصوص.

عندما مررت من أمام الإدارة، استدعتني المديرة وسألتني بغضب:

- ماهي حكاية قرار معلم أول؟

لم أستطع إخفاء دهشتي لأن الحوار بهذا الخصوص تم من لحظات قليلة، ما أسرع انتقال الأخبار في هذه المدرسة.

- أخبرتك الأبلة فيروز؟

سألتها متعجبة، وتذكرت أنني رأيت فيروز تنسحب من المعمل أثناء حديثي مع الموجه؛ لكنها تجاهلت سؤالي:

- موضوع قرار معلم أول لن يغير من وضعك في المدرسة، لا تنسي- أن مدرستي بها معلمون عرب معارون ومتعاقدون وهم أصحاب كفاءات ولا أحتاج لحملة قرارات.

وتابعت بغضب:

- الموضوع بحاجة لمتابعة في مكتب التربية وبالطبع الحصول على إجازة أمر صعب وأنت تدرسين رياضيات.

- قرار معلم أول من حقي الحصول عليه حسب القانون، ولن أحتاج لإجازة.

- تعلمين أن مثل هذا القرار قد يخلق مشكلة في المدرسة.

قاطعتها:

- لماذا سيخلق مشكلة؟ من يستحق يحصل عليه.

- لا تنسي أن الموجهين زملاء دراسة لك وبالتالي هم يجاملونك، ويعطونك تقديرات عالية.

صدمني جداً رأيها، لم أتوقع بتاتا أن تقول ذلك، فقلت لها:

- بكل تأكيد أنت تتذكرين أنني في العام الأول حصلت على تقدير ممتاز بالرغم من أنني لا أعرف الموجه، الموجه كان سوداني، هل كان هو أيضا زميل لي؟

قلت ذلك ونظرت في عينيها بتحد، لكنها صدمتني بردها:

- لا أدري ماذا تفعلين لهم؟ هل تبخرينهم أو تعملين لهم نوع من السحر!

لم أرغب بالرد عليها فخرجت من أمامها وكلي تصميم أن أبدأ بإجراءات متابعة القرار، شعرت بالغيظ الشديد من فيروز، لم أتوقع أن تفعل ذلك ولم أفهم كيف نقلت الخبر للمديرة بتلك السرعة، وعلى أي أساس، وما الذي أزعجها؟ كانت علاقة الأبلة فيروز بالموجهين متوترة، وغالبا ما كانت تشكو بمرارة من الموجه الذي أحرجها أمام البنات، وأصر أن تقرأ آيات من القرآن الكريم ليتأكد من سلامة قراءتها فشعرت بالحرج، واعتبرت أنه تعمد أن يحرجها أمام الطالبات. وعادة ما يكتبه الموجهون عنها يكون سلبياً إلى حد كبير.

حصلت على القرار، فقد أوكل زوجي أحدهم أن يتابع الموضوع في الوزارة، وحرصت أن أسلم المديرة نسخة منه؛ لكنها ببساطة تجاهلته تماما.

نعم أسلوب الإدارة المدرسية لتكريم معلميها فريد من نوعه في هذه المدرسة.

والمعلم الأول في المدرسة هو معلم ينوب عن الموجه في غيابه بحيث يتولى إرشاد بقية معلمي المادة في المدرسة لطرق تدريس المادة مستعينا بتجربته وخبرته، ويعمل على تنظيم اجتماعات مع معلمي المادة لتبادل الخبرات بينهم ومناقشة العراقيل التي قد تواجه أي منهم والبحث عن حلول مناسبة لها، والتخطيط للأنشطة المطلوبة للمادة؛ ليتم تقديمها للطلاب بطريقة تحفزهم على التفاعل والتفكير. المديرة ومن وجهة نظرها أنني لست مؤهلة للعب هذا الدور وأنا المعلمة الأقل خبرة بين معلمي المادة في المدرسة، لكن دور المعلم الأول لم يكن فعالا لأي معلم في أي مادة، والتركيز كان فقط على تنفيذ الحصص المدرسية لتوصيل المنهاج المقرر للطالبات فقط، دون الاهتمام بأنشطة مصاحبة لأي مادة

عدا تعليق لوحات كرتونية كانت تنفذها الطالبات ويكتب في أسفل اللوحة تحت إشراف ويوضع اسم معلم المادة. وكانت تلك اللوحات تزين جدران الصف وتعتبر مقياساً لنشاط المعلم أمام المديرة والموجه. وبعض الطالبات كانت تكلف خطاطاً لتنفيذ اللوحة لتبدو بشكل أفضل. وفي نهاية العام الدراسي يتم التخلص من كل تلك اللوحات ليتم تنفيذ لوحات جديدة في العام الجديد.

العـام الثالث

في العـام الثالـث لعمـلي في المدرسـة، وتحديـدا في مـايو ١٩٩٠م، أُعلنـت الجمهورية اليمنية، دولة الوحدة بين شطري اليمن سابقاً – الجمهورية العربيـة اليمنية في الشمال، وجمهورية اليمن الديمقراطية الشـعبية في الجنـوب - أصـبح الرئيس اليمني الشمالي علي عبد الله صالح هو رئيس الجمهورية اليمنية والرئيس علي سالم البيض الرئيس الجنوبي هو نائـب رئـيس الجمهوريـة اليمنيـة. لم يكـن الحدث عاديا. فتحقيق الوحدة ظل هدفاً تسعى الحكومـات المتتاليـة لتحقيقـه، سمعنا ذلك مرارا وتكرارا في كل الخطب السياسية وفي كل المناسبات الوطنيـة، فالوحدة اليمنية بين شطري اليمن هو أحد أهداف ثورة ٢٦ سبتمبر في الشـمال وثورة ١٤ أكتوبر في الجنوب. وأخيرا تحققت الوحدة.

لكن هناك توجس وتخوف، فقد عكف عدد من العلماء والدعاة على تحـذير الناس من هذه الوحدة المشؤومة -كما أطلقوا عليها- مع الاشتراكيين في الجنوب. الوحدة ستجيء بالاشتراكيين وستجلب الخراب والدمار والانحلال الأخلاقي، في الجنوب النساء سافرات، وشرب الخمر عادة يومية وهناك مصنع شهير للبيرة في صيرة. أي وحدة هذه التي سـيكون الـثمن مـن ديننـا وأخلاقنـا وكثـير مـن التحذيرات والانذارات!!

تمت الوحدة وتحولت اليمن لبلد متعدد الأحزاب، بدلا مـن دولـة الحـزب الواحد. حزب المؤتمر الشعبي العام في الشمال والحزب الاشتراكي في الجنـوب.

فجأة أصبح هناك عدد كبير من الأحزاب السياسية كان أبرزها الحزب الإسلامي " الإصلاح"، وجاءت الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٣م.

وطلت علينا الأبلة مها قاسم، معلمة يمنية من عدن. في صنعاء هناك العديد من أبناء الجنوب، هربوا سابقا من جحيم الحياة في ظل النظام الاشتراكي. لكن مها لم تهرب، ولم تقطع المسافات الطويلة وهي مرعوبة. بل جاءت في وضح النهار. مواطنة يمنية في دولة الوحدة الوليدة. تزوجت بجندي شمالي يسكن في مدينة الروضة، وانتقلت للعمل في مدرسة الجيل الجديد.

لم تكن سافرة، بل منقبة مثل بقية المعلمات في المدرسة، الوحدة غيرت الوضع في الجنوب. كانت تجيب ضاحكة على تلك الأسئلة المشبعة بالفضول والعجب: " نعم، لم ألبس الحجاب من قبل، كان ذلك ممنوع"

تغيرت الاوضاع إذا في الجنوب، فحزب الإصلاح الإسلامي اندفع بقوة ليضع بصمته قبل أن تنتقل للشمال مفاهيم السفور والانحلال.

ظلت مها محط الاهتمام لأيام طويلة وهي تحكي وتجيب عن الاستفسارات برحابة صدر وضحكتها تنشر جو من المرح بين الجميع، اتحفتنا بفكرتها أن ننظم لتناول طعام إفطار جماعي كل صباح في فترة الاستراحة، فهي تحضر العجينة من البيت، ونساعدها في فرد تلك العجينة بعد تقطيعها لكرات صغيرة لعمل خبز الطاوة، وبقية المعلمات تحضر كل واحدة منهن ما تراه مناسباً ليؤكل مع ذلك الخبز الشهي، مع شرب الشاي العدني الشهير.

تغيرت الأوضاع في المدرسة بعد العام ١٩٩٠م، بعد الوحدة اليمنية وغزو الكويت.

بعد غزو صدام حسين للكويت كانت اليمن هي الدولة العربية الوحيدة بمقعد في مجلس الأمن، ورفضت التصويت على القرار الأممي الذي يقضي بانسحاب القوات العراقية من الكويت.

موقف اليمن كانت له تبعات، فقد تم ترحيل ما يقارب من ٧٠٠ ألف عامل يمني من الخليج واضطر عدد منهم للعيش في مخيمات للاجئين، حدثت كارثة للاقتصاد اليمني الهش. فحوالات المغتربين اليمنيين كانت تشكل ما يقارب ملياري دولار سنويا. العامل اليمني كان يتمتع بوضع خاص، فهو يستطيع العمل في السعودية دون كفيل بحسب معاهدة الطائف الموقعة في العام ١٩٣٤م.

ما أصاب الاقتصاد أثر على التعليم وقيمة الريال اليمني الذي تدهور وفقد الكثير من قيمته. فأصبح مرتب المعلم اليمني لا يفي باحتياجاته كما كان من قبل.

علقت إحدى المعلمات على مقدار ما يستلمه المعلم المعار والفرق بينه وبين ما يستلمه المعلم اليمني وهو في بلده، لكن معلمة مصرية لم تستطع منع نفسها من التدخل بغضب:

-اعوذ بالله من الحسد، لا تنسي أني مغتربة عن بلادي وهذه فترة من عمري.

لم يكن الحوار منطقياً من وجهة نظري، ولا يبرر تدهور الوضع المعيشي للمعلم اليمني. التدهور حدث بسبب تدهور قيمة الريال اليمني مقابل الدولار، المعلم المعار كان يستلم راتبة على دفعتين في العام، الدفعة الثانية من مستحقاته بالدولار تقريبا ٣٤٠٠دولار أمريكي يستلمها في نهاية العام، والدفعة الأولى راتب ستة أشهر بالريال اليمني حوالي ٦٥٠٠ ريال يمني للشهر الواحد يستلمها بعد مرور ثلاثة أشهر تقريبا من بداية العام الدراسي، لكن المدرس المتعاقد يستلم مبلغ أقل، ارتفع سعر الدولار من ١٠ ريال تقريبا إلى ٣٦ ريالاً يمنياً عام ١٩٩٢،

فأصبح الفارق بين ما يستلمه اليمني وغير اليمني كبير خاصة عندما بدأت قيمة الريال اليمني بالتدهور تدريجيا مقابل الدولار، فبدأت أصوات ترتفع منادية بأن اليمني يمكن أن يسد محل المعلم العربي وبمرتب أقل.

لم يكن غريباً أن نسمع احتجاجات خافتة من اليمنيات لماذا يستلمون أكثر منا؟

حدث في وقت لاحق أن حدثتني معلمة الرياضيات شادية، وهي معلمة يمنية كانت هي المعلمة اليمنية الثانية للرياضيات في المدرسة، بكثير من الانزعاج:

- أين كنت؟ تمنيت لو كنت موجودة أثناء تواجد مدير مكتب التربية بالمحافظة...

- هل كان في المدرسة؟

قلت ذلك مستغربة، فجدولي لذلك اليوم كان مزدحما بحصص متتالية في المبنى الخارجي للمدرسة..

أجابت وهي تكتم غيظها:

- نعم كان في زيارة خاطفة للمدرسة، وقررت أن أناقش سبب ثقة الإدارة المدرسية بشكل أكبر بالمعلم العربي ...لماذا يعتمدون على المعلمين العرب أكثر من المعلم اليمني، رغم أن المعلم اليمني يكلفهم أقل؟ هل تعلمين بماذا أجاب علي.

هززت رأسي أشجعها على الاستمرار، فقالت:

- قالها صراحة...تخيلي قال هل تقارنين بين كفاءة المعلم اليمني وكفاءة المعلم العربي؟ هل أنت جادة؟

وتابعت وقد بدأ التأثر الواضح على صوتها:

- صدمني برأيه...فقلت له نعم المعلم اليمني أفضل...فضحك وقال المعلم العربي يتم إعداده بشكل أفضل ...يملكون كفاءات لا يملكها المعلم اليمني.... شعرت بالغضب الشديد...هذا رأي مدير مكتب التربية ...ونحن نلوم مديرة المدرسة، هم لا يثقون في المعلم اليمني...

فقلت مبتسمة:

- ولماذا تأهيل المعلم العربي أفضل؟ لماذا لا يتم تأهيل المعلم اليمني بنفس الدرجة؟ هل سيبقون للأبد معتمدين على المعلم العربي؟

قالت بكثير من الحنق والضيق:

- لقد أحبطني تماما...أنت تعلمين أنهم مستفيدون من بقاء المعلم المعار لأنهم يستفيدون ماديا من ابتزاز المعارين ...منظومة فساد كبيرة تستفيد من ذلك.

قطع حديثها الغاضب رنين الجرس معلنا انتهاء فترة الاستراحة، فلملمت حاجياتها ونهضت، وقالت بصوت ينم عن اليأس:

- تبا للفساد...إذا لم ينصفوني في بلدي فمن سينصفني ويقدرني ...

تابعتها بنظراتي وهي تبتعد، وسبحت في بحر من الأفكار عن المعلم اليمني، وعن تأهيله وإعداده، وعن كلية التربية ومناهجها، ومكانة المعلم في المجتمع، ويصل لمسامعي حديث آخر لمعلمة عربية مع صديقة لها، كانت الأولى تشكو من الغربة التي أطلقت عليها اسم كربة، وهي تصف معاناتها مع مطالبات صاحب البيت بالإيجار والبقال بالمديونية التي تراكمت وهي لن تستلم مستحقاتها بالريال اليمني إلا بعد شهر إضافي. كان المعلم المعار أو المتعاقد لا يستلم مستحقاته بشكل شهري، بل مرتين في العام، بعد مرور ثلاثة أشهر على بدء العام الدراسي

يستلم القسط الأول بالريال اليمني، وقبل نهاية العام الدراسي يستلم القسط الأخير بالدولار الأمريكي.

والمعلمة الأخرى كانت تحسب المشتروات التي انتهت منها خلال فترة غربتها وماذا تبقى لتنتهي مما سجلته في قائمة أعدتها مسبقا، لديها ولدان أحدهما في الصف الخامس والآخر في الثالث الابتدائي، واستعرضت قائمة المشتروات لتهون على نفسها ألم الغربة أو الكربة...البوتجاز، جهاز التلفزيون، غسالة الملابس، الثلاجة وأكدت أن مشترياتها من ماركات يابانية أصلية. تدخلت في النقاش معلمة يمنية باندهاش عندما علمت أن هذه الأدوات الكهربائية ستكون لزواج ولديها: "لماذا تشترين هذه الأشياء منذ الآن، سيكبر ولداك وتكون هذه الأشياء قد صارت قديمة؟"

لكن يأتيها الجواب:

- "قديمة - إيه! هم يطولوا، ولا عمرهم حيقدروا يجيبوا الحاجات دي، في مصر الاجهزة الكهربائية محلية وسيئة. دي فرصه مش حتتكرر".

دق جرس الحصة التالية فلملمت حاجاتي التي بعثرتها أمامي، ونهضت مبتعدة وذلك الحديث لايزال يطن في رأسي.

أي سنفور أنا؟

قبل دخولي للصف سمعت ضحكات الطالبات وهن يخلعن ألقاب على المعلمين والمعلمات في المدرسة، كانت الطالبات يستخدمن شخصيات المسلسل الكرتوني "السنافر"، لتصنيف المعلمين والمعلمات. عندما شعرن بوجودي عادت كل طالبة لمقعدها، ووقفن تحية لدخولي، ألقيت عليهن السلام فرددن التحية، بعد جلوسهن سألتهن أي من شخصيات السنافر اخترنها لي؟

نظرت الطالبات لبعضهن بنوع من الحرج وأنكرن بشده أنهن فعلن ذلك.

- لكنني سمعتكن وأنتن تصنفن معلمي ومعلمات المدرسة.

قلت ذلك مؤكدة إصراري أن أعرف أي شخصية للسنافر اخترنها لي، كنت واثقة جداً من نفسي ومن حب الطالبات لي، وتخيلت أن شخصية السنفور ذكي هي المناسبة لي، أو لربما شخصية السنفورة هي الأكثر ملائمة في نظر الطالبات. لهذا كنت مصرة أن اسمع ذلك الاطراء من الطالبات.

لكن بعض الطالبات لجأن للحلف يمينا أنني لم يشملني التصنيف، وتحت إصراري تطوعت إحداهن لتخبرني:

- السنفور غضبان.

لا أدري لماذا شعرت بالصدمة، سنفور غضبان؟

كان ذلك اختيار غريب جداً من وجهة نظري. اختيار خيب أملي كثيرا.

شرعت بعض الطالبات بمحاولة إنكار ذلك، ربما لتخفيف ما لاحظنه من خيبة أمل على وجهي.

سألتهن بتعجب:

- لماذا سنفور غضبان؟

جاءتني الإجابات موضحة سبب ذلك الاختيار الذي كان صادما لي، فأنا معلمة جادة أكثر من اللازم، وأريد استغلال كل دقيقة من وقت الحصة، وأصر على شرح كل شيء ومتابعة كل طالبة.

- يا أبلة أحلام... البعض يمزح أثناء الحصة، أو يعطينا متنفساً بعدم شرح الدروس في بعض الحصص، لكنك لا تمزحين أبداً، ولا تتركين دقيقة واحدة تمر من وقت الحصة.

كان ذلك اليوم من الأيام الذي جعلني أتوقف وأراجع نفسي، نحتاج أن نقف مع أنفسنا، ونراجع تصرفاتنا وعلاقاتنا بالآخرين ومعرفة رأي الآخرين فينا، لا يكفي أن نمتلك الثقة بما نفعل، نحتاج أن نعرف أثر ما نفعله للآخرين من وجهة نظرهم.

في ذلك اليوم رغم الألم الذي شعرته إلا أنني تعلمت شيئاً مختلفاً، أفادني ذلك كثيراً.

وفهمت لماذا لست السنفور ذكي...

بين البيت والمدرسة

الدوام في المدرسة يبدأ يوميا من الساعة ٧:٣٠ صباحا بالطابور، وينتهي عند الساعة ١٢:٣٠ ظهرا. تلي الطابور الصباحي الثلاث الحصص الأولى وتأتي الاستراحة الساعة العاشرة وتستمر لمدة نصف ساعة، ثم تأتي الثلاث الحصص الأخيرة. ست حصص كل يوم عدا الخميس الذي فيه خمس حصص فقط فينتهي الدوام فيه الساعة ١١:٥٠ تقريبا.

يبدأ يومي في وقت مبكر في الصباح لأني أم لطفلين، وبعد الجري صباحا لعمل كل ما يلزم قبل خروجنا من البيت، أذهب للمدرسة محاولة اللحاق بحافظة الدوام، وعند انتهاء الدوام أعود مسرعة للبيت أسابق عقارب الساعة لتحضير الغداء وتنظيف البيت والاهتمام بالصغيرين. ويأتي الوقت الخاص بأبنائي لمساعدتهم في استذكار دروسهم وحل واجباتهم المدرسية.

في أغلب الأيام أعود للبيت حاملة كيس كبير فيه دفاتر الطالبات لتصحيحها إلى جانب كيس آخر فيه بعض الخضار من الدكان الصغير المقابل للمدرسة، فالوقت في المدرسة لا يكفي لتصحيح كل دفاتر البنات. ولم يكن يعجبني إهمال بعض المعلمات اللاتي يتسبب تركهن لدفاتر البنات على الطاولات في الإدارة أو المكتبة ضياع دفاتر البنات.

وهناك مسألة تحضير الدروس بحسب الجدول لكل يوم، وهذا يستغرق جزء لا بأس به من الوقت في البيت. اشتريت كل ما وقعت عليه يداي من كتب خاصة

بالرياضيات حول المواضيع المقررة للطالبات بحثا عن طرق جديدة لحل التمارين الرياضية، أو أسلوب مختلف لشرح بعض المواضيع، فمكتبة المدرسة لا يوجد فيها ما يعين المعلم على فهم أكثر لمادته، فأصبحت لدي مكتبتي الخاصة في البيت تضم أعداداً كبيرة من الكتب عن الرياضيات وطرق تدريسها.

المحزن في الأمر أن إدارة المدرسة وبالرغم من كون المديرة أنثى وأم إلا أنها لا تتعاطف أبداً مع ظروف المعلمات الأمهات، تظن أنها بموقفها المتشدد تخدم العملية التعليمية، كيف لمعلمة تعيش تحت الضغط أن تدرس بطريقة أفضل. والاعتقاد الخطأ أن أي تعاطف مع المعلمات يعني الفوضى.

وكان هذا هو الموقف الرسمي في الوزارة على ما يبدو، حضرت حلقة نقاشية عن التعليم في برنامج تلفزيوني، يستضيف مسؤول مع مواطنين أو موظفين من جهة لها علاقة بالمسؤول، بعد أن رشحتني المديرة لذلك، وكان الضيف الرسمي في الحلقة هو أحد وكلاء وزارة التربية والتعليم. كان طوال الوقت يبرر موقف الوزارة، وعندما طرحت رأيي في مسألة كثافة الحصص الأسبوعية أو النصاب كما يسمونها التي يجب على المعلم أن ينفذها في الأسبوع، خاصة والمعلم عليه أن يقضي وقت في البيت للتحضير وإعداد الدروس وهذا لا يتناسب مع الراتب الذي يتقاضاه، خاصة بعد أن انخفض مستوى دخل الفرد في اليمن من ٦٨٦ دولاراً أمريكياً عام ١٩٩٠م، إلى ٢٨٨ دولاراً أمريكياً عام ١٩٩٥م.

كان موقف الوكيل غير لطيف، كان رده قاسيا وجافا ورأيه متصلب. ولم يبد أي تعاطف مع المعلم. وفي رأيه أن ما يستلمه المعلم من راتب كاف لو قارناه مع غيره من الموظفين، لكنه لم يقارن راتب المعلم بما يستلمه هو من راتب وبدلات.

خلاف في المدرسة

لاحظت تأخر الطالبات عن الدخول للحصة في أحد الفصول، وتكرر الأمر في كل مرة وفي الحصة التي يكون معهن قبل حصة الرياضيات حصة للعلوم في المعمل، بالطبع المعمل ليس فيه شيء لكن المعلمة كان لها وجهة نظر على ما يبدو أن تشعر الطالبات بنوع من التغيير والخروج من الصف للمعمل فيه حركه، فأنذرتهن أنني لن أسمح لمن تتأخر بدخول الحصة. لكن ما إن أدخل الصف حتى تأتي بعض الطالبات المتأخرات بعدي، فيطرقن الباب، أخبرتهن بحزم أنني نبهت عليهن مرارا وأعطيتهن عشر دقائق فرصة للعودة للصف قبل دخولي، لهذا لن أسمح لهن بالدخول. وكيل المدرسة طرق الباب وتوسط للطالبات وشرح لي أن الذنب ليس ذنبهن فالأبلة فاطمة هي سبب تأخيرهن فحصة العلوم تتم في المعمل وهي من تتسبب في تأخرهن. سمحت للطالبات بالدخول بعد أن تعهدن بألا يتأخرن مرة أخرى.

في المرة التالية وفي نفس الحصة تأخرت بعض البنات فرفضت السماح لهن بالدخول، شرحت لي إحدى الطالبات أن الأبلة فاطمة لا تسمح لهن بكتابة الدرس أثناء الشرح وعند نهاية الحصة يقمن بكتابة الدرس، كما أنها لا تسمح لأية طالبة بمغادرة المعمل حتى تقوم بتصحيح دفترها. لم ألق بالاً لكلام الطالبات، فلم يكن من حق الأبلة فاطمة احتجاز الطالبات فأبلغتهن أن موقفي لن يتغير وليعرضن مشكلتهن على الإدارة لتحل الإشكال فوقت الحصة سيضيع بهذا الشكل بانتظار عودة المتأخرات منهن.

وبينما كنت منشغلة بشرح الدرس، سمعت بشكل مفاجئ صراخ الأبلة فاطمة وكان واضحاً أن جميع من في المبنى القديم للمدرسة سمع صراخها، وخيل إلي أنني سمعتها تسبني وتشتمني. لم أصدق ما أسمعه. فتوقفت عن شرح الدرس وكانت الطالبات ينظرن إلي باستغراب وينتظرن رد فعلي. فتحت باب الصف وكانت الأبلة فاطمة تقف عند باب الإدارة بقامتها الطويلة، فهي الأكثر طولا بين جميع المعلمات، طويلة وعريضة البنية، وكانت تصرخ بهياج غير عادي وغير طبيعي وما أن رأتني حتى زاد صراخها، وكان مما قالته:

" من اين بيجيبوا الأشكال دي؟ بنت مفعوصه زي دي عايزه تمشي كلامها عليا...سيبوني اضربها، والنبي لاضربها".

فأسرعت بعض المعلمات القريبات منها بالإمساك بها، كما هرع بعض المعلمين للوقوف أمامها لمنعها من التحرك باتجاهي. لم أكن قد استوعبت الموقف بعد. كان وكيل المدرسة قد طلب منها عدم تأخير الطالبات والسماح لهن بالخروج بمجرد انتهاء الحصة حتى لا يتم حرمانهن من حصة الرياضيات. تجمع المعلمون والمعلمات ممن كانت لهم حصص في المبنى القديم في ذلك الممر الطويل للمدرسة وأخذت بعض المعلمات بيد الأبلة فاطمة وأرغمنها على الدخول للإدارة لتهدئتها، كانت لا تزال تصرخ وتشتمني، وتولول على سوء حظها والمتاعب التي تلاحقها. وكأنها لم تجد مجالاً للتفريغ عن غضبها وإحباطها إلا معي.

اقترب مني أبي عبد الله قائلا:

- لا تهتمي لها إنها قليلة أدب، أنت أكثر عقلا وأدبا منها، أرجو يا ابنتي أن تقدري الموقف لأن أي تصرف منك سيؤثر على المديرة لأنها اليوم غير موجودة.

- أي تصرف تقصد؟

- إذا كنت تفكرين في تقديم شكوى ضد الأبلة فاطمة لمكتب التربية فهذا حقك لكن انتظري للغد حتى تعود المديرة ولنرى ماذا ستفعل، لأن مكتب التربية سيحاسب المديرة لغيابها.

وعدت أبي عبد الله بالانتظار حتى الغد.

في صباح اليوم التالي جاءت المديرة، واستدعتني للإدارة ووجدت الأبلة فاطمة تجلس أمام مكتب المديرة فأشارت لي المديرة بالجلوس، وكان على يمين المديرة تجلس الأبلة أسماء والأبلة فيروز، كانت كل منهما بالأمس لديها حصة في المبني الخارجي للمدرسة ولم يحضرن الموقف الذي حدث، وأبي عبد الله يجلس على يسارها.

بدأت المديرة حديثها بأنها تستغرب أن يحدث موقف مثل هذا في مدرستها، ولكن لننهي الموقف بالتصالح والتسامح. قاطعتها مستغربة:

- تسامح على أي أساس، لتعتذر على موقفها وماقالته من كلمات جارحة بحقي وكذلك تهديدها لي بالضرب أمام الجميع. ماذا فعلت لأستحق منها ذلك؟

اعترضت مديرة المدرسة على كلامي، وأكدت أنها استمعت لشهادات الجميع الذي شهدوا أنني أسأت للأبلة فاطمة وأن موقفها كان دفاعيا. أسماء وفيروز أيضاً شهدن بهذا.

- أسماء وفيروز شهدن بهذا!

قلت ذلك باستغراب شديد. في الوقت الذي تجنبت كل منهما النظر في عيني، لكنهن أكدن للمديرة صحة شهادتهن. فرفعت صوتي:

- هذه شهادة زور كيف يشهدن وهن لم يكن موجودات في الأساس...أبي عبد الله كان موجوداً...

فقاطعتني المديرة بغضب:

- لم يشهد أحد معك سوى أبي عبد الله.

- وهل شهادة وكيل المدرسة غير مقبولة، وشهادات الزور مقبولة.

ردت المديرة بنوع من الضيق:

- أرجوك يا أحلام لا داعي لتكبير الموضوع لتعتذر كل منكن للأخرى ولنقفل الموضوع.

فسارعت الأبلة فاطمة بالقول:

- سأكون أطيب منك وأسامحك، ربنا يسامحك.

وجدت نفسي أقف بغضب قائلة:

- أنا لا أقبل هذه المهزلة وسأرفع الموضوع لمكتب التربية وأشكو إدارة المدرسة أيضاً.

- من سيشهد معك؟ ... قالت ذلك المديرة.

خرجت من الإدارة وأنا أشعر بمرارة كبيرة في حلقي، وألم شديد يعتصر قلبي. ذلك الموقف أثر كثيرا على علاقتي بأغلب المعلمات لأنهن وقفن مع الأبلة فاطمة، وببساطة بدأن بمقاطعتي. لم أفهم ماذا كانت تشرح لهن لتحصل على كل هذا التعاطف. رددت حسبي الله ونعم الوكيل في المديرة وفاطمة وكل من شهد زوراً معها، وأشعرني ذلك بنوع من الارتياح.

عدت بذاكرتي لبداية العام الدراسي...

بعد أن انتهت فترة عمل الأستاذ نبيل معلم الكيمياء والفيزياء للمرحلة الثانوية، حلت مكانه فاطمة، وزوجها محمود معلم العلوم للمرحلة الإعدادية. في تلك الفترة كان أغلب المعلمين العرب يتم التعاقد معهم للتدريس في اليمن

عبر دولة الكويت بعقود إعارة وكان الحصول على هذا العقد يعتبر حلماً بالنسبة للمعلمين العرب، وكانت الشروط تقتضي الخبرة والكفاءة. من لم يحالفه الحظ بالحصول على عقد اعارة عبر مكتب دولة الكويت- التي كانت تنفق على مرتبات أغلب المعلمين في اليمن -كان يحصل على عقد براتب أقل عبر التعاقد مع السفارة اليمنية مباشرة. لذا الأبلة فاطمة كانت معارة، وزوجها تم التعاقد معه بعقد محلي.

ولأن الأيام تخبئ مفاجئات قد يكون بعضها غير سار بالمرة، تعرض الأستاذ محمود زوج الأبلة فاطمة لجلطة أثرت عليه بشكل كبير، وتم نقله إلى المستشفى.

المديرة أبلغت فاطمة أن غياب زوجها لو استمر طويلا فسيؤثر على سير الدراسة في المدرسة ولابد أن تجد حلاً، وإلا فإنها مضطرة للاستغناء عنه وطلب معلم بديل.

انفجرت الأبلة فاطمة باكية، كانت تعاني من الإجهاد والتعب والقلق على زوجها، كان الموقف عصيباً ومؤثراً.

تعاطفت كثيرا معها وأبلغتها أنني أستطيع أن أدرس بدلا منها مادة الفيزياء للمرحلة الثانوية؛ ليخف جدولها، وتستطيع أن تدرس جزء من جدول زوجها مؤقتاً حتى تتحسن حالته.

الأبلة فاطمة كانت ممتنة جداً لموقفي، وأبلغها معلم الرياضيات الأستاذ أحمد أنه سيدرس بعض حصص مادة العلوم ليخف قلق المديرة بسبب غياب زوج الأبلة فاطمة التي تحتاج لزيارة زوجها في المستشفى. في تلك السنة كان الأستاذ أحمد يدرس الرياضيات للصفين الثاني والثالث الثانوي بالإضافة للثالث

الإعدادي بدلا من الأستاذ محمد وأدرس أنا بدلا من الأستاذ محسن الأول ثانوي والأول والثاني الإعدادي، بعد أن انتهت عقود الإعارة للأستاذين السابقين.

وافقت المديرة أن أدرس الفيزياء للأول الثانوي فقط، لكن الصفين الثاني والثالث ثانوي على فاطمة أن تستمر في تدريسهما.

استمر هذا الوضع لفترة، ولم يكن مجهداً لي لأن حصص الفيزياء قليلة حصتين في الأسبوع، والمنهج كان ممتع، ولم تعد هناك مشكلة مع الطالبات أن تكون المعلمة يمنية، وكانت علاقتي بالطالبات ممتازة فأنا اقوم بتدريسهن مادة الرياضيات.

تحسنت صحة الأستاذ محمود، وخرج من المستشفى وعاد للمدرسة، لكن آثار التعب كانت لاتزال واضحة عليه، لم يعد كما كان، فحركته بطيئة لكن عودته كانت ضرورية حتى لا تستغني عنه إدارة المدرسة بسبب تغيبه الطويل عن المدرسة. توقف الأستاذ أحمد عن تدريس العلوم، لكنني أبلغت الأبلة فاطمة أنني سأستمر في تدريس الفيزياء بحيث تستطيع هي مساعدة زوجها في جدوله فوضعه الصحي لايزال متعبا. فعلت ذلك بكل رحابة صدر، وكنت متعاطفة لأبعد الحدود مع وضعها، فهي مغتربة عن بلدها، وتعرضت لموقف صعب بمرض زوجها، ولديها ابن في سن المدرسة عليها الاهتمام به وبأبيه وبالتدريس.

كانت تبدو طوال الوقت متعبة ومتوترة، ومرت الأيام بشكل روتيني ولا جديد.

حتى حدث ما حدث بالأمس، ببساطة لن أترك تدريس حصص الفيزياء للأول الثانوي كرد فعل لما حدث، حاولت ألا أربط بين الأمرين. واستمر الوضع كذلك حتى نهاية العام.

لا أدري لماذا كان البعض يظن أنني سأسعى للانتقام منها كرد فعل على ما فعلته، فالانتقام لم يخطر ببالي، كنت أشعر بالألم الشديد لما حدث، وخاصة لموقف المديرة التي قالت لي أنها لا تريد أن يظن أحداً أنها تجاملني لأنها صديقتي.

صديقتي!

يا للسخرية أية صداقة هذه، ومتى كانت صديقتي، وحتى لو كانت فعلا تتعامل معي كصديقة فالتصرف العادل مع الجميع ليس فيه أي إخلال بالصداقة. أبلغتها أنني أتمنى أن تعاملني كبقية المعلمات في المدرسة فقط، وتنسى أنها صديقتي.

في العام التالي لم تكن الأبلة فاطمة موجودة ولا زوجها في المدرسة، لم أهتم بالأمر. سمعت الأبلة فيروز تقول وهي تنظر باتجاهي بنظرات لم تعجبني، بأن الأبلة فاطمة عوضها الله وانتقلت للعمل في مدرسة بمدينة عمران وهي في وضع أفضل، تجاهلت الأمر ولم أهتم له. لم أكن أعرف لماذا انتقلت الأبلة فاطمة وزوجها للعمل في مدينة عمران، فعمران تبعد حوالي ٥٠ كم شمال العاصمة صنعاء، ولم اشعر بالفضول لمعرفة ذلك. اعتبرت أن الأمر لا يهمني.

ذات يوم سمعت همساً يدور حول الأبلة فاطمة، فتجاهلت الأمر أيضا، خاصة عندما لاحظت أن الكلام يتوقف عندما أدخل الغرفة. فلم أسأل لأن قصص فاطمة لا تهمني ولا تثير اهتمامي بأي حال. لكن بعد مرور أيام قليلة على ذلك استدعتني المديرة لمكتبها. طلبت مني الجلوس على المقعد المقابل لها. فجلست بهدوء وأنا أحاول تخمين ما تريد مني، وأردد سرا:

"خير اللهم أجعله خير".

وجهت كلامها لي بسؤال:

- هل قدمت العزاء للأبلة فاطمة؟

قلت باستغراب شديد:

- عزاء؟ من الذي مات؟

فقالت بحزن:

- كلنا قدمنا لها العزاء في وفاة ابنها...

- يا إلهي ماذا حدث لابنها؟ لم يبلغني أحد بذلك.

فقالت وهي تركز نظراتها في عيني:

- لقد خشيت المعلمات أن تشمتي فيها.

استغربت أكثر لكلام المديرة:

- ولم أشمت فيها؟

أجابت:

- أتذكرين ذلك الخلاف الذي حدث العام الماضي؟ يبدو أنك كنت مظلومة...

نظرت للمديرة دون تعليق، فواصلت كلامها:

- سامحيها يا أحلام المسامح كريم...

انتفضت ووقفت، وأنا أشعر بالغضب الشديد:

- ليس من حق أحد أن يملي علي ما أفعل...

- أرجوك أجلسي واهدأي...

بقيت واقفة مكاني وأنا أشعر بعدم الرغبة في البقاء، أشارت لي المديرة بالجلوس، فجلست على مضض:

- أتتذكرين الخلاف الذي حدث بينكما السنة الماضية؟

قاطعتها بضيق:

- لم يكن خلافاً هي من تعدت على وأنت كنت في صفها...

قالت بهدوء:

- حسنا لن نختلف، لقد حدث خلاف آخر بيني وبين الأبلة فاطمة في وقت لاحق، وللأسف كان رد فعلها سيء ومفاجئ لي فقررت الاستغناء عنها. ففي نهاية كل عام أكتب تقريراً عن كل المعلمين في مدرستي وأضع تقديرات للكل، هذا شيء روتيني يتم نهاية كل عام، وأرسل تلك التقديرات لمكتب التربية. فوضعت لفاطمة تقديراً سيئاً وهذا يعني أنني لا أرغب في تواجدها في مدرستي في العام القادم، وبالطبع سيتم نقلها إلى مدرسة أخرى قد تكون خارج صنعاء. قبل أن تسافر إلى مصر لقضاء الإجازة الصيفية عرفت التقدير الذي وضعته لها من مكتب التربية، فجاءت لزيارتي في البيت عاتبة لموقفي، وأرادت أن تعرف لماذا؟ فلم أجبها فثارت وقالت لي بغضب شديد أنا أعرف السبب...أحلام هي السبب...ظنت أنك السبب.. فبدأت تبكي وتدعو عليك...حاولت أن أشرح لها أن لا علاقة لك بالموضوع.. لكنها لم تقتنع وكانت تدعو عليك بشكل مخيف ...لقد شعرت بالخوف وهي تقول:" ربنا ياخذ ابنها من بين أيديها"...

توقفت المديرة قليلا ثم تابعت بحزن عميق:

- هل تعلمين أن ابنها تعرض لحادث سيارة وأخذه الله من بين يديها كما كانت تدعو عليك...

- يا إلهي...

كان الخبر قاسيا وصادما، صحيح أنني شعرت بالقهر والألم الشديدين من الأبلة فاطمة، ومن موقف المديرة ومن شهادة الزور التي تجرأت كل من أسماء وفيروز على الإدلاء بها دون حياء. لكن ما حدث لفاطمة فعلا كان موجعا.

شعرت بالحزن من أجل فاطمة، خاصة وأنها اضطرت لفسخ عقد الإعارة والعودة لبلدها وهي تحمل جثة ابنها، كما روت لي المديرة.

كم هو عجيب الإنسان الذي يتسلط، ويتفنن في قهر غيره كم يكون ضعيفاً وهشاً عندما يتعرض لموقف صعب لم يكن ليخطر بباله. لم أناقش مشاعري وأحاسيسي مع أحد لأن التفسيرات والتخمينات كانت تزعجني في ظل سوء الظن السائد في المدرسة. اكتفيت بترديد "لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" بصوت مسموع لتسمعه المديرة وخرجت من أمامها.

الشعور بالظلم شعور مؤلم جدا، وهذا شيء يحس به من يتعرض للظلم ولا يكون أمامه وسيلة لرد الظلم عن نفسه.

وكيلة للمدرسة

أبلغني وكيل المدرسة أبي عبد الله بأنه مدد فترة خدمته لعدد من السنوات، وهذا العام سيكون آخر عام له للعمل وستتم إحالته للتقاعد بنهاية هذا العام الدراسي. لقد بلغ السبعين من عمره تقريبا، ولابد من تعيين وكيلة للمدرسة بديلا عنه، من المعلمات في المدرسة.

- أنت أحق من غيرك بالمنصب بحسب القانون، أنت تحملين مؤهلاً جامعياً، وتم تعيينك قبل الأخريات ممن يحملن مؤهلات جامعية. عليك تقديم طلب بهذا الخصوص لمكتب التربية، أخبري زوجك أن يقوم بذلك، أنت أولى من أسماء، أو غيرها.

زوجي كان له وجهة نظر أخرى، فالعمل في التدريس أفضل من العمل الإداري بالمدرسة، عبر وكيل المدرسة عن حزنه لهذا القرار.

وبدأت معركة التنافس لمنصب وكيل المدرسة. أسماء، هناء، وفيروز كل واحدة منهن تظن أنها أحق بالمنصب من غيرها.

بقيت بعيدة عن هذا التنافس، ولم أشارك فيه. وقبل نهاية العام الدراسي أسرت لي هناء أن قرار تعيينها وكيلة للمدرسة جاهز. قالت لي بسعادة بالغة:

- سيكون هذا مفاجأة للجميع في بداية العام القادم.

أضافت وهي تكتم ضحكة ساخرة:

- تخيلي أسماء وفيروز كيف سيكون وقع هذا القرار عليهن....

أطلقت ضحكة طويلة مملؤة سعادة، وتابعت بصوت هامس:

- لا أحد يعرف هذا سواك، أرجو أن يبقى هذا سراً بيننا.

ربتت على كتفي، نظرت إلى عينيها التي تطل منهما السعادة فابتسمت لها وودعتها بعد أن وعدتها بأن ذلك سيبقى سراً كما تريد.

للأقدار أحكام غريبة في بعض الأحيان، فهو يفاجئنا بما لم نفكر به ولم نستعد له. لم يمر على هذا الموقف سوى أسابيع قليلة، وكان الزمن في فترة الإجازة الصيفية، اتصلت بي آمال عبر هاتف البيت لتبلغني أن هناء توفت بالأمس وطلبت أن أرافقها للعزاء.

- ماذا تقولين؟

شعرت بصدمة كبيرة، فهناء كانت بصحة جيدة ولا تعاني من أية متاعب صحية. لكن آمال أكدت لي أن هناء توفت. فقلت مستوضحة:

- لا بد أنك تقصدين أن أختها هي من توفت؟

لكنها أجابت بثقة كبيرة:

- أختها الله يشفيها لاتزال على قيد الحياة، وهناء هي من توفت كما أخبرتك.

وبدأت تشرح لي كيف ماتت هناء، فعند خروجها من البيت لتحضر ابنتها من بيت صديقتها كان يرافقها ابنها المراهق، فطلبت منه أن يفتح البوابة لتخرج السيارة، أبلغها ابنها أنه شعر بشيء غريب عندما لمس البوابة الحديدية، نظرت إليه وهي تضحك متهمة إياه أنه يختلق ذلك ليقود هو السيارة ففتحت باب السيارة وطلبت منه أن يقودها هو بدلاً عنها وتوجهت هي لتفتح البوابة، و بمجرد أن أمسكت بالبوابة الحديدية صعقتها الكهرباء وأطاح بها الباب لمسافة

بعيدة، صرخ ابنها مذهولا وعلامات الرعب مرتسمة على وجهه وهو يشاهد والدته مطروحة أرضا وجسدها ينتفض. صرخ طالبا المساعدة لإسعاف والدته التي كانت في حالة سيئة، وتوفت قبل أن تصل السيارة للمستشفى.

لم أستطع أن أصدق ذلك، وتذكرت ذلك اليوم الذي أخبرتني بسعادة بالغة، أنها حصلت على قرار تعيينها وكيلة للمدرسة خلفاً لأبي عبد الله، يا للعجب توفت هناء هكذا بحادث غريب، في الوقت الذي كانت أسرتها تتوقع موت أختها المصابة بالسرطان والتي تعاني من آلام المراحل الأخيرة للمرض.

أحدث خبر موت هناء صدمة للجميع، وتوقفت كثيراً عند ذلك الحدث أتأمل غرابة القدر، كيف يمكن للمرء أن يحلم، ويبني قصوراً من الأحلام والأمنيات، ثم يأتي الموت لينسف كل ذلك ويحوله إلى هباء لا قيمة له..

في بداية العام الدراسي لم نعد نرى وكيل المدرسة أبي عبد الله، وأصبحت أسماء هي وكيلة المدرسة، تركت التدريس لتتفرغ لمهام منصبها الجديد، واحتاجت لفترة من الوقت حتى تصمت وتكف عن اخبارنا بأنها تستحق هذا المنصب بما تملك من خبرات وقدرات إدارية وتربوية أهلتها لهذا المنصب.

الحفل الخيري

فوزية هي المعلمة اليمنية الثالثة في المدرسة والتي تحمل مؤهلاً جامعياً في الدراسات الإسلامية، وتم تكليفها بتدريس التربية الإسلامية في المدرسة، أخبرتني وهي تتنهد بحزن أنها حاولت اقناع مديرة المدرسة بإقامة حفل خيري في المدرسة؛ لكن المديرة رفضت أن تستمع للفكرة في الأساس.

شرحت لي الفكرة -ببساطة- تحديد أحد الأيام لإقامة طبق خيري أو يوم مفتوح للنشاط تتوقف فيه الدراسة، وتتحول غرف الدراسة لأماكن لبيع المأكولات والملابس وغيره، والعائد المالي لذلك اليوم يكون مساهمة لأحد المشاريع الخيرية التي ترعى الأسر الفقيرة. نسبة الفقر زادت بشكل كبير بعد عودة المغتربين من الخليج، وكان عدد منهم يعيش في خيام.

أخبرتها بأنني سأحاول ان أقنع المديرة. ظننت أن المديرة رفضت الاستماع لها بسبب أنها تنتمي لحزب الإصلاح الإسلامي بينما المديرة تنتمي لحزب المؤتمر الحاكم، لم تكن المديرة ترتاح لما يأتي من معلمة تنتمي لحزب سياسي منافس حيث تتداخل السياسة مع العمل في المدرسة. فذهبت لمقابلة المديرة وشرحت لها الموضوع محاولة التأثير عليها خاصة وهي تعلم أنني مستقلة سياسيا وليس لي علاقة بذلك الحزب المعارض، استمعت لي بهدوء ثم أخبرتني ببساطة بأنها غير موافقة.

لم أيأس، وسألتها ما الذي ستخسره، سيكون هذا نشاطاً للمدرسة ويوماً مختلفاً لكسر الروتين الدراسي، وستعود الطالبات بعده للدراسة بنشاط أكبر.

سيحضر الآباء والأمهات للمدرسة وهذا شيء جميل حتى لا تكون المدرسة في عزلة عن المجتمع.

سألتني:

- ألا يتطلب مثل هذا النشاط تعطيل للحصص الدراسية لأسبوع على الأقل؟

أجبتها نافية لذلك:

- لا.. لا ...لن تتعطل الدراسة حتى ليوم واحد.

نظرت بحدة في عيني وقالت:

- كيف هذا؟

- ستستمر الحصص كما هي، سنبلغ الطالبات لنرى من لديها الاستعداد للمشاركة في الإعداد والتحضير قد احتاج أنا والأبلة فوزية فقط للتفرغ من الحصص.

رفعت حاجبيها مبدية دهشتها، وقالت:

- اسمعي هذه الفوضى أعلم أنها لابد أن تحدث، ولهذا أنا غير متحمسة لمثل هذا النشاط.

- لن يكون هناك أي نوع من الفوضى دعيني أشرح لك وجهة نظري ...

زفرت المديرة بشيء من الضيق فواصلت كلامي بحماس:

- سأتفق بشكل شخصي مع بعض المعلمات لتغطية حصصي، تلك الحصص ستقوم المعلمات بشرح دروسهن فيها وبعد اليوم الخيري سآخذ منهن عدد من الحصص يوازي ما أخذن مني ولن يؤثر ذلك أبدا على السير في الدروس.

قالت المديرة:

- أنا موافقة على إقامة النشاط لكن بشرط واحد، موضوع توزيع الحصص مرفوض.

شعرت بالغيظ وأنا أحاول إقناعها والتأثير عليها وهي لم تتزحزح أبداً عن رأيها.

قبلت التحدي، ووافقت وأكدت لها أن ذلك ممكن وكنت أتمنى أن تبدي بعض المرونة لتسهيل الأمر لكنها حركت رأسها معلنة رفضها، وقالت:

- أريني شطارتك.

لا أدري لماذا امتلأت بروح التحدي والتصميم وعزمت على تنفيذ ذلك النشاط.

بدأت بتبليغ الطالبات بموعد تنفيذ الطبق الخيري، ومساهمته في تقديم المساعدة لبعض المحتاجين، وشرحت لهن أن كل ذلك النشاط سيكون بمبادرات تطوعية، فمن لديها الرغبة بالتطوع لتسجل اسمها وتحديد نوع المساهمة التي ستقدمها. حماس الطالبات فاق كثيراً ما توقعت.

تم تحديد ما هو المطلوب بالضبط من الطالبات، التبرع بمبالغ مالية، التبرع بمواد عينية مثل: البيض والدقيق وغيره من مستلزمات عمل الفطائر والحلويات، التبرع بملابس بحالة جيدة، وكتب وألعاب وتحف وغيرها، والمشاركة في التنفيذ والإعداد.

كان لابد أن يكون كل شيء واضحاً ومحدداً حتى لا تعم الفوضى التي كانت تخشاها المديرة. تجاوب وتفاعل الطالبات كان مشجعا، وبدأت التبرعات تنهال من الطالبات.

تم تكليف إحدى الطالبات باستلام المبالغ المالية المتبرع بها وتسجيل أسماء الطالبات المتبرعات وقيمة المبلغ المالي المتبرع به.

وطالبة أخرى تم تكليفها بتسجيل أسماء الطالبات المتبرعات بالمواد العينية الخاصة بالحلويات والمأكولات وتسليمها للأبلة نور وهي معلمة اللغة الانجليزية ولديها حصص نشاط تدبير منزلي لاستكمال نصاب حصصها، وأبدت استعداداً كبيراً للمشاركة، وتجهيز الحلويات التي كانت بارعة في إعدادها.

وتم تكليف طالبة باستلام الكتب المتبرع بها وتسجيل أسماء المتبرعات وأسماء الكتب المتبرع بها، وتخصيص مكان في المكتبة لتخزين تلك الكتب، وتحديد طالبة أخرى لاستلام الملابس، وطالبة لاستلام الألعاب والإكسسوارات المنزلية.

وكانت المهمة الثانية تتطلب تسعير الكتب والألعاب والملابس، ووضع ملصقات تحمل السعر التقديري، مع مراعاة أن يكون السعر رمزياً قدر الإمكان لتشجيع الكل على الشراء. اضطررت للاجتماع مع الطالبات والأبلة فوزية في فترات الاستراحة بشكل يومي.

استمرت الحصص الدراسية تسير بشكل عادي لم يتم التأثير على سيرها، كان تجاوب الطالبات وتفاعلهن منقطع النظير. استطعت أن أبث فيهن روح التعاون والتجاوب.

الهدف كان نبيلاً، والطالبات أبدين تفاعلاً جميلاً جداً. كانت المديرة تحضر أحيانا اجتماعاتنا وترى حماس الطالبات وتفاعلهن، من المؤكد أن ذلك أدهشها، فهي لم تكن تتوقع ذلك. في اليوم السابق لتنفيذ اليوم الخيري حضرت الطالبات المتطوعات مع الأبلة نور وبعض المعلمات اللاتي تطوعن بدورهن لتقديم

المساعدة، كانت الأبلة نور قد حددت لكل واحدة منهن مهمة، وتم إحضار أفران كهربائية من بعض الطالبات المتطوعات وأواني خاصة بالفرن. وبدأت المهمة الصعبة. تركت ذلك للأبلة نور بعد أن شرحت لي في يوم سابق ما هي خطتها ونوع المساعدة التي تحتاجها. شُمرت السواعد وبدأ العمل. وكان هناك فريق يقوم بترتيب الطاولات في الغرف التي خصصت في المبني الخارجي حيث سيتم عرض المنتوجات. وعُلقت اللوحات الإرشادية والتي كتبتها الطالبات المتطوعات بخط جميل. فريق الكتب قمن بترتيب الكتب التي حددت أسعارها على الطاولات. وفي غرفه أخرى تم ترتيب الملابس مع الأوراق التي تحمل الأسعار وهكذا. وكان كل فريق ترأسه طالبة بيدها الدفتر الذي تسجل كل شيء عليه مع الاسعار. وكانت التوجيهات والتعليمات واضحة، كل قطعة يتم بيعها يتم وضع إشارة أمامها على الدفتر ليكون العمل التالي سهلاً في حصر ما سيتبقى. وخصصت إحدى الغرف للمنتوجات الفنية التي تنتجها الأبلة آمال مع الطالبات، تم إغلاق الغرف بالمفاتيح. استغرق ذلك العمل وقتاً طويلاً وعادت البنات لبيوتهن في وقت متأخر، البعض منهن رافقتهن أمهاتهن اللائي تطوعن أيضا للعمل مع بناتهن.

كان خبر اليوم الخيري قد ذاع في كل مكان، وتم تعليق لوحه تعلو بوابة المدرسة. عندما غادرت المدرسة كانت الأبلة نور ومساعداتها لا يزلن في مطبخ المدرسة، مع بعض أمهات الطالبات المتطوعات للمساعدة. حتى المديرة حضرت بشكل مفاجئ وشكرت الجميع وأبدت إعجابها الشديد بما ترى.

جاء ذلك الصباح الذي ظلت المديرة تشكك في إمكانية حدوثه، حضر الجميع في وقت مبكر، تأكدت أن جميع الطالبات فهمن ما هو مطلوب من كل واحده منهن، إحدى الطالبات قالت لي:

- لا تقلقي يا أبلة أحلام لقد فهمنا كل شيء ولن نخذلك أبداً.

تم تخصيص غرفة للحلويات والمعجنات، وتكليف الطالبات المتطوعات بالوقوف للبيع بعد تحديد الاسعار المناسبة لكل صنف، ووضع كمية من الأطباق والملاعق البلاستيكية بالقرب منهن.

وحانت ساعة فتح بوابة المدرسة، كانت أعداد الداخلين كبيرة أكبر مما توقعناه.

وكانت هناك مفاجأة لي وللأبلة فوزية، حضور فريق تصوير من التلفزيون الرسمي، وعدد من الصحفيين لتغطية المناسبة، وبالطبع حضور ممثلين عن إدارة الأنشطة المدرسية من وزارة التربية والتعليم، كانت المديرة تقف أمام عدسة التصوير تتحدث عن إنجاز مدرستها، وماقامت به من تخطيط وعمل وتكليف وشكرت الأبلة نور والطالبات وبعض المعلمين المتميزين والمعلمات، والمفاجئة طبعا أنها لم تشر أبداً لأسمي ولا لاسم فوزية. همست لي الأبلة فوزية بحزن:

- لماذا لم تذكر اسمينا؟ نحن من قام بكل هذا!

فحاولت بلع ريقي بصعوبة وأنا أشعر بما تشعر به من ألم.

كان الزحام شديداً على غرفة المأكولات التي انتهى كل ما فيها بشكل سريع رغم الكميات الكبيرة التي تم تجهيزها.

استلمت من الطالبات المبالغ المالية مع كشف بما تم بيعه وما تبقى من كل نوع، كانت العملية سهلة، وتمت بسلاسة. وبمساعدتهن تمت إعادة الفصول كما كانت، كانت سعادة الطالبات غامرة بما حدث.

في صباح اليوم التالي سألتني المديرة عن المبلغ، وعن حصة المدرسة في المبلغ الذي تم جمعه، لكنني أبلغتها انه تم التواصل مع شخص يمثل مؤسسة خيرية وقد حضر فعلا لمقابلة المديرة، وسلمتها المبلغ بعد أن وضعته في مظروف، فقامت بدورها بتسليمه لذلك الشخص بعد أن تأكدت أنه يحمل بطاقة عضوية رسمية في المؤسسة الخيرية، وبدوره سلمها وصل استلام للمبلغ عليه ختم رسمي للمؤسسة مع شهادة شكر للمديرة.

علقت المديرة بأنها تخطط لنشاط آخر مشابه مستقبلا نظراً لنجاح هذا النشاط والإقبال الشديد الذي حصل عليه من أهالي المنطقة وأولياء أمور الطالبات. لم أعلق على الأمر، ولا أتذكر أن مثل ذلك النشاط حدث في الفترة التي قضيتها في المدرسة.

زيارة الوزير

في أحد الصباحات المشرقة وأغلب صباحاتنا مشرقة وجميلة، وبينما كنت اقترب مسرعة من باب المدرسة، شعرت بشيء غريب في الشارع...

نعم، لقد لفت انتباهي أن الشارع اليوم يبدو نظيفاً بطريقة ملحوظة، تعجبت ودخلت المدرسة على وجه السرعة حتى الحق التوقيع في حافظة الدوام.

وما أن دخلت من باب المدرسة إلا وانتابني شعور بأنني دخلت مكان عجيب لا أعرفه...

المديرة متواجدة ومنشغلة تنتقل من مكان إلى آخر على عجل، وهي تلقي التعليمات والأوامر...

الكل منشغل بغسل وتنظيف المدرسة، لا طابور في هذا اليوم!

دخلت الإدارة ويا للعجب لاتزال الحافظة موجودة، وقعت اسمي، وحاولت أن أفهم ما الذي يجري؟

المدرسة اليوم لا تشبه المدرسة التي أعرفها كل يوم.

كل ما فيها نظيف على غير العادة، لقد تم غسل كل شيء، حتى السبورات في الصفوف، الكل يعمل ويشارك بما في ذلك الطالبات!

سألت:

- ما الذي يجري! أ فأجابتني إحدى المعلمات هامسة:

- سيزورنا الوزير...

- أي وزير؟

- معالي وزير التربية والتعليم بكل تأكيد.

- ولماذا كل هذا النشاط والتنظيف؟

- لأن الوزير سيزورنا..

قالت ذلك باسمة، مع غمزة بعينها.

انتهت حملة التنظيف ودخلت الطالبات الصفوف...

اليوم كل شيء يبدو مثاليا ...

كل شيء لم يكن حقيقيا ...

حضر الوزير ومرافقيه، استقبلته المديرة عند باب المدرسة، وتنقلت معه في أرجاء المدرسة وهي تشرح له بحماس عن إنجازاتها وما تقدمه للمدرسة من مجهودات غير عادية...

شعرت ذلك اليوم بمعنى التزييف، تمنيت لو تتاح لي الفرصة لأكلم الوزير وأشرح له أن هذه التي يزورها اليوم ليست مدرستنا، وما يحدث اليوم هو شيء مختلف عما يحدث كل يوم، ليته زار المدرسة بشكل مفاجئ.

إحدى المعلمات همست لي:

- المديرة تم إبلاغها بزيارة الوزير، فالزيارة المفترض أن تكون مفاجئة.

شعرت بالغيظ وتمنيت أن يعرف الوزير أن ما يراه ليس حقيقيا، كيف سيعرف الوزير حقيقة أوضاع المدارس إذا كانت الأوضاع يتم تزييفها ليرى شيئاً يخالف الواقع؟ لم يكن هناك أحد يشعر بالرغبة في مناقشة هذه النقطة.

في اليوم التالي عادت الأوضاع لطبيعتها، عادت المدرسة كما كانت، قبل زيارة معالي الوزير.

في أحد الأيام عندما دخلت غرفة الملفات عند الأبلة هناء سمعت همساً يدور حول الأستاذ فارس وإحدى الطالبات وحقيقة تواجدهما معا في الصف الذي يقع أمام مكتب الأبلة هناء. ذلك الصف عبارة عن غرفة خالية إلا من بعض الكراسي، الهمس يدور عن تكرار تواجد الأستاذ مع الطالبة نفسها في ذات الصف، كان الحديث فيه الكثير من الغمز واللمز، لم تعجبني نبرة الحديث، ولا الموضوع. فسألت:

- هل هذا كلام صحيح؟

فجاءتني الإجابة سريعا:

- تستطيعين التأكد بنفسك الآن. افتحي الباب وستشاهدين منظراً رومانسياً.

- وكيف تسمحن بهذا؟ ألم تتصرفن أبدا؟

أجابتني إحدى المعلمات بأن هذا الأمر من اختصاص مديرة المدرسة، وهي المسؤولة عما يحدث في المدرسة.

- وهل تعرف المديرة بما يحدث؟

كانت الإجابة بالنفي. خرجت مسرعة باتجاه مكتب المديرة، وقفت أمامها، وأبلغتها أن هناك إشاعة تدور في المدرسة عن علاقة عاطفية تجمع الأستاذ فارس بإحدى طالبات المدرسة، وأنني رأيت من واجبي إبلاغها لتضع حداً للإشاعات هذه.

وقفت المديرة غاضبة عندما علمت أن الأستاذ متواجد في هذه اللحظة مع الطالبة، تحركت بخطوات سريعة باتجاه غرفة الصف التي أخبرتها عنها.

فتحت المديرة الباب بشكل مفاجئ، انتفض الأستاذ وكذلك الطالبة، كان الأستاذ يجلس على حافة النافذة في حين الطالبة تواجهه على أحد المقاعد.

قالت المديرة بصوت غاضب:

- الله المستعان أستاذ فارس لم أكن اتوقعها منك أنت بالذات.

كان الأستاذ مرتبكا، يحاول أن يشرح للمديرة أنه يساعد الطالبة في حل مشكله شخصية لجأت إليه لحلها.

غادرت الموقف وانسحبت باتجاه مكتب الأبلة هناء، هناك تلقيت الكثير من عبارات اللوم من المعلمات لموقفي الذي لم يستحسننه.

فأخبرت المعلمات أنه من العيب أن نسكت على ما يحدث، فالأستاذ يتصرف بطريقة غير صحيحة. كان عليه أن يحول موضوع الطالبة للاختصاصية الاجتماعية في المدرسة بدلاً من أن يتحول الموضوع لمجال القيل والقال، فهو معلم للغة الإنجليزية، وليس من اختصاصه حل مشكلات الطالبات.

قاطعتني إحداهن:

- يعجبني طيبة قلبك وبراءتك!

قالت ذلك بطريقة لم تعجبني.

فأضافت أخرى:

- ما الذي فعلته يا عزيزتي؟ لقد حرمتينا من متابعة إحدى قصص غراميات الأستاذ الوسيم.

لا أدري كيف انتهت القصة، لكن كانت هناك قصة أخرى شغلتني عنها.

في بعض الأيام كانت ترافقني في طريق العودة للبيت إحدى الطالبات والتي تسكن قريبا من بيتي، طوال الطريق تتحدث بحماس وإعجاب شديدين عن معلم الرياضيات العراقي الذي يقوم بتدريسهن في الصف الثالث الثانوي. في تلك الفترة حدث ما سمي بيمننة التعليم في اليمن. وأصبح أغلب شاغلي وظائف التدريس في المدراس هم يمنيون.

فبعد عام ١٩٩٠م، وبعد غزو صدام حسين للكويت ووقوف الحكومة اليمنية في صف العراق بموجب اتفاق مجلس التعاون العربي بين الدول الأربع: جمهورية العراق، والمملكة الأردنية الهاشمية، والجمهورية العربية اليمنية، وجمهورية مصر العربية والذي تم تأسيسه في عام ١٩٨٩م، لكن غزو العراق للكويت في أغسطس ١٩٩٠م كان سبباً لانفراط هذا الحلف خاصة مع انحياز الحكومة المصرية لمصلحة الكويت. ونتيجة للموقف الرسمي اليمني سحبت الكويت أغلب مساعداتها لليمن وخاصة في مجال دفع مرتبات المعلمين والمعلمات المعارين الذي كان أغلبهم من مصر. تداعيات الموقف الرسمي اليمني من غزو العراق للكويت كان كارثيا على اليمن بكل معنى الكلمة، فقد قررت دول مجلس التعاون الخليجي إلغاء كل الامتيازات التي كانت ممنوحة للمغتربين اليمنيين في دول الخليج، وتم ترحيل مئات الآلاف من المغتربين اليمنيين من دول الخليج، مما شكل وضعاً مأساوياً للعائدين إلى اليمن ، فتفاقمت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في اليمن، الجمهورية اليمنية الدولة الوليدة التي لم يمر على توحيد

شطريها سوى ثلاثة أشهر[١] ، وشكلت عودة هـذا العـدد الكبـير مـن المغتربـين والذي يقترب من ٧٠٠ ألف عائد كارثة اقتصادية حقيقية فزادت نسـبة الفقـر والبطالة في البلد. واستقبلت اليمن عدداً كبيراً من المعلمين العراقيين لسد الفراغ الذي سببه توقف عقود الإعارة للمعلمين العرب، لأن يمننة التعلـيم واجهـت مشكلة نقص أعداد المعلمين اليمنيين في التخصصات العلمية واللغة الانجليزية.

ونعود لقصة الطالبة التي كانت تحدثني عن معلم الرياضيات، لفت انتباهي أنها لم تكن تتحدث عن براعة ذلك المعلم في التدريس، بل تتحدث عـن أناقتـه، عن عطره، ماذا يحب وماذا يكره. فقلت لنفسي هذا اعجاب مراهقـة بمعلمهـا. لكن فاجأتني في أحد الايام وهي تشرح لي أنه سيتقدم لخطبتها! وبدأت تصف لي مشاعرها، وحب الأستاذ لها، ووعده لها بأنه في نهايـة العـام سـيتقدم لخطبتهـا، وكيف أنها تقضي بعض من الوقت في محادثته على الهاتف.

ترددت كثيراً وأنا أفكر في كلامها، شيء ما لم يعجبني، قلبي كان يخـبرني أن هناك خطأ ما، شعرت أنه ليس من الحكمة أن أنقل كلامهـا لوالـدتها وأتسـبب بمشكلة لها؛ لكنني فكرت في إبلاغ مديرة المدرسـة. وحاولـت أن أتخيـل مـاذا سأقول للمديرة؟ احتاج اثباتات لما أقوله. حاولت رسم صورة للموقف وهـل سيكون موقفي جيدا أم سيئا...هل ستفسر المديرة كلامي أنه نـوع مـن مشـاعر الغيرة من الأستاذ. لقد كان الأولى أن أستلم أنا تدريس الصف الثالث الثـانوي لكن مديرة المدرسة رفضت ذلك وأصبح هناك معلم عراقي للرياضيات يدرس الصف الثالث الثانوي في المدرسة ويدرس في ذات الوقت في مدرسـة التعـاون

[١] الوحدة اليمنية تمت في شهر مايو ١٩٩٠م

الذي يعمل زوجها مديراً لها، فقررت أن أتريث وأتروى وأسمع من البنت تفاصيل أكثر.

حدث مالم يخطر على بالي قط، جاء والد طالبة أخرى إلى إدارة المدرسة وهو ثائر جداً، يشكو للمديرة سوء أخلاق معلم الرياضيات. توقفت عند باب الإدارة وأنا لا أصدق ما أسمع. مديرة المدرسة لا تريد فضائح في المدرسة فطلبت إغلاق باب الإدارة فأغلقت الباب وجلست على إحدى الطاولات متظاهرة بأنني مشغولة بتصحيح دفاتر الطالبات، مديرة المدرسة حاولت تهدئة والد الطالبة، وتريد منه أن يروي لها ما حدث بهدوء، والد الطالبة كان يتحدث بعصبية ويوجه اللوم للمديرة، كيف ترضى بوجود معلم بلا أخلاق ولا ضمير لتدريس طالبات في مرحلة عمرية حرجة. كان عليها أن تكون أكثر حرصا. وشرح لها أنه اكتشف أن ابنته تقضي بعض الوقت في الحديث عبر الهاتف، في البداية ظن أنها تحادث إحدى صديقاتها لكن تبين له أنها تحادث معلم الرياضيات في المدرسة. وعندما ضغط عليها اعترفت له أن المعلم يحبها ووعدها بالزواج. شعرت بعدم الاستيعاب هل يعني هذا أن المعلم وعد أكثر من طالبة بالزواج؟ مديرة المدرسة نجحت في امتصاص غضب والد الطالبة ووعدته بأن تتحرى عن الأمر، وتتخذ الإجراءات اللازمة، والد الطالبة كان طلبه محدداً الاستغناء عن هذا المعلم. اقنعته المديرة أنه ليس من مصلحة ابنته إثارة لغط في المدرسة حول سمعتها، ووعدته أنها ستتصرف، وأقنعته أن طلب تغيير معلم سيأخذ بعض من الوقت. خرج والد الطالبة، فبادرت الابلة أسماء بإخبار المديرة انها تلقت شكوى من ولي أمر آخر، فالمعلم وعد أكثر من طالبة بالزواج. ويبدو أن احدى الطالبات اسرت لصديقة لها عن علاقتها بالمعلم فتفاجئت ان صديقتها ايضا تلقت نفس الوعد من المعلم.

رأيت أنه لم يعد مناسبا أن أتكلم وأبلغ المديرة بحكاية الطالبة الأخرى. كانت المديرة تضرب كفا بكف وهي لا تصدق ما تسمع. وانتشر الخبر في المدرسة كانتشار النار في الهشيم. أصبح ذلك الخبر لأيام هو حديث الجميع. تم نقل المعلم صاحب الغراميات المتعددة من المدرسة، لا أدري إلى أين تم نقله.

لم يكن هناك مجال لمناقشة ما حدث، فتم إسدال الستار على تلك الحكاية العجيبة. حتى تلك الطالبة تجنبت المشي معي بعد ذلك.

السياسة في المدرسة

المدرسة مؤسسة تعليمية، لا علاقة لها بالأحزاب السياسية أو انتماءات من يعمل فيها. حيث يفترض ألا تكون المدرسة ساحة للتنافس السياسي، لكن الواقع مختلف عن ذلك. كانت أغلب المدارس يديرها من ينتمون للحزب الحاكم، حزب المؤتمر الشعبي العام، من يدير المدرسة يجب أن يحمل بطاقة عضوية الحزب.

وكان هناك المعاهد العلمية – وهي معاهد دينية – والتي يديرها الحزب المعارض، حزب التجمع اليمني للإصلاح والتي بدأ انتشارها في البلاد في عام ١٩٧٤م عندما صدر قرار بإنشاء رئاسة المعاهد العلمية وبدأ الأمر بثمانية معاهد ثم انتشرت تلك المعاهد الدينية في كل محافظات الجمهورية تقريبا، كان عدد المعاهد ٤٢٠ معهداً علمياً دينياً، ولها ميزانية مستقلة عن وزارة التربية التعليم. ووجود من يحمل بطاقة عضوية في الحزب المعارض ويعمل في المدارس الحكومية لم يكن مرحباً به كثيراً، مثل الأبلة فوزية والتي كانت علاقتها متوترة بالمديرة لهذا السبب. خاصة وفوزية لم تكن من النوع الذي يملك تأثيراً أو قدرة على الإقناع. فهي من الشخصيات الهادئة التي لا تملك القدرة على المواجهة، أو كما يقول المثل الشعبي: "تغرق في شبر ماء".

التأثير السلبي للسياسة على التعليم لمسته في أحد المرات أثناء الاختبارات النهائية، عندما تم إبلاغنا بتخفيف المراقبة على اللجان والسماح بالغش، وعندما أبديت استغرابي أبلغتني تلك المشرفة على سير الاختبارات بأن المدرسة محسوبة

على حزب المؤتمر وأن نتائج الاختبار يجب أن تكون أعلى من تلك المدارس المحسوبة سياسيا على الحزب المعارض[١]، فأبديت اعتراضي وأبلغت المديرة بأني لن أتقيد بهذه التعليمات. لم تجد أي جدوى لمناقشتي فأخبرتني بأن اسمي لن يكون في كشف الأسماء التي سيتم تكليفها بالمراقبة في الاختبارات النهائية لمرحلة الشهادات، الشهادة الإعدادية والثانوية. على كل حال، أسعدني ذلك كثيرا.

حدث ذات يوم في أثناء زيارة مسؤول من مكتب التربية للمدرسة وكان يتناقش مع المديرة في مسألة حزب الإصلاح، الحزب المعارض، وقال بكثير من التهكم:

- إصلاح؟ ماذا يريدون أن يصلحوا في البلاد؟ هل نحتاج فعلا لإصلاح؟

شدني تماما ذلك النقاش، وتعجبت من وجهة نظر ذلك الشخص الذي يرى أن البلد لا يحتاج أي إصلاح لمجرد أن الحزب المعارض يحمل اسم الإصلاح!

أدهشني إلى أي مدى ممكن أن يصل الكيد السياسي.

لأي حزب تنتمي كان شيء مهم، أن تحمل بطاقة العضوية في المؤتمر الشعبي العام في مدرسة تديرها مديرة تنتمي للمؤتمر الشعبي العام كان أمراً مفيداً. لكن أن أكون مستقلة ولا أهتم بالسياسة لم يكن هو الخيار السليم على ما يبدو.

ظهر التعصب بوضوح في فترة الانتخابات البرلمانية، تحولت المدرسة لمركز للدعاية الانتخابية لمرشح الحزب الحاكم، المديرة والمعلمات المؤتمريات كن

---

[١] في عام ٢٠٠١ تم الغاء المعاهد العلمية وتحويلها إلى مدارس حكومية، لكنها كانت تحت سيطرة الحزب المعارض. وبررت الحكومة ذلك الالغاء بتجنيب اليمن حرب مشابهه لحرب افغانستان بعد احداث الحادي عشر من سبتمبر. وكذلك لتوحيد العقيدة في البلاد.

يتصرفن بعصبية واضحة. انتشر في تلك الفترة تسجيل لمجموعة من العلماء على أشرطة الكاسيت عن الانتخابات فمنعت المديرة تداولها في المدرسة. استدعتني ذات يوم مؤنبة، فقد وصلها أنني شجعت البنات على الاستماع لتلك الاشرطة. قالت بلهجة مهددة:

- أعلم أنك لا تنتمين لحزب الإصلاح، فلا داعي لأن تفعلي ذلك، وإلا ستعرضين نفسك لما لا تتخيلينه.

فتحت عيني على اتساعهما دهشة واستغرابا:

- هل هذا تهديد؟ أين التعددية الحزبية والديمقراطية وقبول الآخر.

قاطعتني بغضب:

- دعي عنك هذه الفلسفة والكلام الفاضي، كلامي واضح ومحدد.

- ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟ لا أدري الذي نقل لك الكلام ماذا قال لك بالضبط؟ أنا شرحت للطالبات أننا دولة ديمقراطية وبها تعددية حزبية وبالتالي عليهن أن يستمعن للجميع...

قاطعتني بضجر:

- أنت كما تقولين مستقلة، ولا تنتمين لحزب سياسي إذاً لا علاقة لك بهذا الكلام...في مدرستي ممنوع السياسة.

- حقا!

كررت تهديدها، وهي تهز سبابتها بحركة عصبية.

- هذا كلام لا مزاح فيه...إياك من الكلام في السياسة ...لا توعية ولا أي تبريرات...لقد شرحت لهم أنك مستقلة ولا تقصدين...وإلا كانوا سيستهدفونك ...هذا كلام لا مزاح فيه..

بقيت واقفة أحدق فيها -فقط، أتأمل متعجبة كيف يتحول الإنسان إلى وحش كاسر، كيف يستغني عن نعمة العقل والتفكير! هي تستخدم أسلوب التهديد لإسكاتي، وإرهابي. فخطر على بالي سؤال عمن هم هؤلاء الذين تهددني بهم؟ لكنني شعرت بألا رغبة لي في مواصلة الكلام.

أضافت:

- لا أريد أن أسمع من أولياء الأمور أنك مستمرة في إفساد عقول بناتهم بالكلام في السياسة، أنت معلمة رياضيات فحسب. مفهوم؟

رددت سرا:" نعم، فهمت، وعاشت الديمقراطية والتعدد الحزبي في بلادي".

ظاهرة الغش

جاءت معلمة تهمس للمديرة بأن الأستاذ إبراهيم معلم الرياضيات يكتب حلول الاختبار لمادة الرياضيات على السبورة لطالبات الصف الثالث الإعدادي في لجنة الاختبار. صعقت المديرة، ماذا؟ الأستاذ إبراهيم رئيس الكنترول؟

في تلك المرة ولسبب غير معروف ودون سابق انذار غيرت مديرة المدرسة سياستها المتبعة. لم تعتمد أسئلة الاختبارات التي قدمها لها المعلمون والمعلمات في المدرسة كما جرت العادة في كل الاختبارات السابقة، بل اعتمدت أسئلة الاختبار التي وضعها معلمو مدرسة التعاون، المدرسة التي يديرها زوجها. ربما أرادت أن تدحض إشاعات أثيرت أن بعض المعلمين يضع أسئلة للاختبار ويدرب الطالبات على حل تلك الأسئلة لتكون نسبة النجاح عالية بين الطالبات وتكون مهمة الاستذكار للطالبات أسهل ونسبة النجاح مرتفعة فتعتبر الإدارة ذلك دليلاً على براعة المعلم أو المعلمة، فكان اختبار الرياضيات في هذه المرة صدمة للبنات في الصف الثالث الإعدادي، لذا قام الأستاذ بكتابة حل أسئلة الاختبار على السبورة، لسوء حظه مرت تلك المعلمة ولسبب ما وربما بالصدفة المطلقة مرت على لجنة الاختبار تلك وشاهدت الأستاذ منهمك بحل الاختبار على السبورة فأسرعت تنقل الخبر العجيب للمديرة.

خرجت المديرة باتجاه قاعة الاختبار تلك، وهي تكاد تقطع المسافة جريا، دخلت القاعة بشكل مفاجئ، الأستاذ المنهمك بكتابة الحلول التفت مرعوبا باتجاه المديرة التي قالت بصوت يرتجف غضبا:

- الله المستعان يا أستاذ إبراهيم...الله المستعان لم أتوقعها منك ...

أُسقط في يدي الأستاذ الذي ضبط متلبسا ولم يستطع أن يقول شيئا. كانت ثقة المديرة فيه عالية فهو رئيس الكونترول، كانت حوادث الغش تتم في المدرسة بطرق ملتوية نوعا ما، ولكن ليس بهذه الطريقة المباشرة والفجة.

موضوع الغش في الاختبارات داخل المدارس ظاهرة سيئة ولم تجد جهوداً صادقة للحد منها. أصبح موضوع الغش حقاً للطالب، فكثير من أولياء أمور الطالبات يشعرون بالغضب من أي معلم لا يسمح بالغش، فالغش أمر عادي وحق طبيعي لكل طالب.

أتذكر عندما انتقلت للعمل في مكتب التربية بإدارة التوجيه وكان مطلوب أن أقوم بإجراء بحث تربوي فاخترت أن يكون موضوع البحث عن ظاهرة الغش في المدارس، وفوجئت بأن هناك عدداً كبيراً من الأبحاث التي تناولت موضوع الغش في المدارس، وتلك البحوث ينتهي بها الأمر في الأدراج، لا أحد يقرؤها، أو يعلم بوجودها، وظاهرة الغش تنمو وتتسع بمرور الوقت لتصبح ثقافة لا أحد يستنكرها، أو يشعر بخطرها. وتضيع تلك الأصوات التي تحاول التنبيه بالخطر القادم في زحمة اللامبالاة أو المصالح الأنانية التي يحققها البعض على حساب القيم في المجتمع. بل أن هناك من نصحني بدلاً من أن أتعب نفسي في تنفيذ بحث حقيقي لن يهتم أحد بنتائجه، فما علي سوى أخذ أحد الأبحاث الجاهزة وإعادة طباعته بعد تغيير اسم الباحث باسمي. "نعم، لم لا، صدقيني الأمر لا يستحق العناء لن يقرأ أحد بحثك، البحوث مجرد متطلب شكلي"، هكذا قال لي أحدهم. أمر مؤسف وظاهرة مخيفة.

من غشنا ليس منا ...

حديث تحول محتواه لشعار نسمعه مراراً وتكراراً، لكنه من أكثر الشعارات التي تتم مخالفتها خاصة في مجال الاختبارات في المدرسة، ويبدو أن الرقعة تتسع لتشمل كل حياتنا.

الجاسوسة

سرت شائعة بين المعلمات عن وجود جاسوسة بيننا، هذه الجاسوسة تقوم بنقل كل ما يقال في لقائاتنا لمديرة المدرسة.

قالت إحدى المعلمات بتوتر:

- التفكير المنطقي يستوجب وجود جاسوسة فعلا، لكن من هي تلك الجاسوسة؟

سكتت قليلا ثم أضافت:

-كيف للمديرة أن تعرف بكل ما نتحدث به في غيابها؟

تدخلت أخرى لتؤكد كلام الأولى:

- كيف تعرف المديرة بتلك التفاصيل التي تدور هنا بيننا؟

حامت الشكوك حول الأبلة سامية، فهي الأقرب للمديرة كما قالت التي أرادت إقناع الجميع بصحة شكوكها حول سامية.

كان الأمر غريباً ومزعجاً، فالأحاديث عادة هي نوع من التنفيس عن الغضب من تصرفات المديرة، وقراراتها العجيبة أحيانا، ولأن المعلمات لا يتجرأن على قول لا للمديرة، ولا يرفضن تلك القرارات المزعجة فإن الحل الوحيد هو التنفيس عن الغضب بالكلام الذي يتخلله نقد لاذع لشخص المديرة. والقاء بعض النكات الساخرة ليس أكثر.

المزعج أن بعض تلك الأقوال والانتقادات كانت تصل بحذافيرها للمديرة. يحدث أن يتم الاتفاق مثلاً بين معلمتين على أن تغطي إحداهن حصص معلمة

أخرى عندما يكون هناك ظرف طارئ بحيث لا تعرف المديرة، ولن يؤثر ذلك على سير الدروس ولكنها تتفاجأ بوقوف المديرة عند بوابة المدرسة بانتظارها لتسمعها سيلاً من التوبيخ والتعنيف.

لم أستطع التصديق أن الجاسوسة هي سامية، وقامت بعض المعلمات بتوجيه الاتهام صراحة لسامية التي غضبت، وأقسمت أن هذه تهمة باطلة وظلم شديد لها. كان من الواضح أن المديرة كان لها وسائلها الخاصة لإحكام السيطرة على الجميع. ويبدو أن هناك من لديها الاستعداد للعب دور الجاسوسة، وبث الشك بين الجميع. ففي نهاية الأمر المديرة تعلم بكل ما يدور في المدرسة، من تأخرت ومن قالت وماذا قالت.

شعرت بالحزن من أجل سامية، وحاولت تلطيف الجو فحكيت حكاية شهيرة يذكرها الناس عن الإمام[1] الذي كان يحكم اليمن قبل عام ١٩٦٢، بعد أن عزل البلد عن العالم وكان يبث إشاعة أنه يحكم الجن والإنس معا، وأن الجن ينقلون له كل الأخبار، في الوقت الذي كان يستخدم سماعات في تلك الغرف التي خصصت للاجتماع، وعندما يدخل عليهم يخبرهم بما قاله كل واحد منهم فيشعرون بالرعب، وتزداد قناعتهم بأن الجن يخبرونه بذلك، فقلت ضاحكة:

- ربما أن المديرة تدير مدرسة للجن والإنس.

فانفجرن ضاحكات.

---

[1] كان يطلق على الحاكم لليمن قبل ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ الإمام.

حصص الأنشطة

عندما كنت طالبة في المرحلة الابتدائية وحتى الصف الثالث الثانوي، كانت هناك حصص تسمى حصص الأنشطة، وهي حصص متنوعة: حصة للرسم، وحصة للموسيقى، وحصة للتدبير المنزلي، وحصة للخياطة والتطريز، وحصة للرياضة البدنية، بالإضافة لحصة المكتبة والقراءة الحرة.

حصص الأنشطة كان لها قيمة كبيرة، وتبعد شبح الملل والرتابة في المدرسة. وتسهم في بلورة شخصية الطالب، وتخرج مكنونات الشخصية، وتساعد على اكتشاف المواهب الإبداعية. تلك الحصص فيها فنون تغرس الحس بالجمال في نفس الطالب، وتفجر إبداعاته بعيداً عن العنف والسطحية.

إضافة للأنشطة الموسمية في المناسبات الدينية مثل ذكرى الإسراء والمعراج، وهجرة النبي- عليه الصلاة والسلام -، والمولد النبوي، والمناسبات الوطنية مثل يوم السادس والعشرين من سبتمبر، فكل مناسبة منها تتحول لموضوع سنوي يتكرر للتعبير في حصة اللغة العربية، ومناسبة للاحتفالات سواء بالأناشيد، أو المسرحيات والتي يتم تسجيلها لتعرض على شاشة التلفزيون. فتظهر المواهب وتكون فرصة للطالب ليعبر عن نفسه بعيدا عن رتابة التعليم.

ولا أنسى الرحلات المدرسية الترفيهية وعادة كانت تتم إلى شلال بني مطر، أو لمصنع الغزل والنسيج أو للمتحف الوطني، أو لقصر دار الحجر الشهير.

الغريب أن حصص الأنشطة المدرسية تلك جميعها اختفت من جدول الحصص في المدرسة.

تغير كل ذلك والآن اصطبغت الحياة بطابع متزمت لـه موقـف سـلبي مـن الفنون، فالرسم والموسيقى والمسرح والتمثيل تم تصنيفها بالأنشطة غير المقبولة دينيا. لذلك اختفت من الجـداول، وتـم توزيـع حصـص الأنشـطة عـلى المـواد الدراسية.

حصص الأبلة آمال للنشاط الفني لم تكن حصصاً ذات طابع رسمي، ولكن إذا غاب أحدهم تقوم الأبلة آمال بتغطية الحصـة بالنشـاط، وحصـص التـدبير المنزلي وجدت فقط في أحد المرات لأن جدول معلمة اللغة الإنجليزيـة لم يكـن كافيا، فاقترحت أن تأخذ حصص التدبير المنزلي لاستكمال جدولها.

لا أدري تحديدا من الذي أوحى للمديرة ذات مرة بتوزيع حصص الأنشطة على الجميع بحيث يتم استغلالها في أنشـطة تخـص المـواد الدراسـية. فأضـيفت حصتين لجدولي. وطلبت مني المديرة أن يكون هناك نشاط فعـلي أطلقـت عليـه مسمى "النشاط المفتوح". لم تحدد المديرة ماهية النشاط، وتركت ذلك لاجتهاد كل معلم أو معلمة.

أبلغت الطالبات أن النشاط المفتوح سيكون عبارة عن تشجيع لهن للبحث بعيداً عن المادة الدراسية، وسأترك موضوع البحث مفتوح، بمعنى أن الطالبة يحق لها أن تبحث في أي موضوع تريد وليس بالضرورة أن يكون عن الرياضيات فهو نشاط مفتوح، وعلى الطالبة أن تكتب عـن ذلـك الموضـوع مـع كتابـة مصـادر البحث. استمعت لاقتراحاتهن بشأن المواضيع التي يمكن البحث فيها وكانـت الاقتراحات متنوعة وأبديت استعدادي لتزويدهن بالكتب اللازمـة...وفي كـل حصة من حصص النشاط نناقش أحد المواضيع المقترحة لمعرفة جوانب أكثر عن الموضوع.

استحسنت الطالبات المقترح واتفقنا أن من تنجز بحثها عليها أن تقرأه للجميع لتعم الفائدة. واختارت كل طالبة موضوعاً محدداً بعد أن ناقشت معهن أن البحث سيؤدي لتوسيع مداركهن وزيادة معارفهن في المواضيع التي تم اختيارها بدلاً من الاعتماد على القيل والقال كما يحدث عادة، أو عبر مصادر غير صحيحة، كنت أهدف من هذا أن تتعلم الطالبات نوعاً من طرق التفكير العلمي في الحياة، ومعرفة المبادئ الأساسية للبحث العلمي، وغرس عادة القراءة والبحث في نفوسهن.

استدعتني المديرة ذات يوم، وعندما وقفت أمامها بادرتني بالسؤال:

- ما هو تخصصك يا أبلة أحلام؟

كانت كلماتها مليئة بالغضب ومن الواضح أنها تحاول كتم بركان من الغضب يتفجر بداخلها. عندما لاحظت أنني استغربت سؤالها قالت موضحة:

- أنت معلمة رياضيات، صحيح؟

أجبتها بقلق:

- صحيح.

- ومن الطبيعي أن تطلبي من الطالبات كتابة بحوث عن علماء الرياضيات.

قالت ذلك وهي تشير لعدد من الملفات على سطح مكتبها:

- أنا لا أفهم كيف تطلبين إلى الطالبات الكتابة في هذه المواضيع؟

نظرت للملفات وشعرت بالاستغراب، لماذا الملفات على مكتبها، كان على الطالبات أن يسلمنها لي أنا.

فسألتها:

- كيف وصلت لك هذه الملفات ...

لكن المديرة قاطعتني ونبرة الغضب تتصاعد في صوتها:

- أنت إنسانة غريبة الأطوار فعلا، وتثبتين هذا لي دائما... " حقيقة الجن"، " السحر والسحرة"، " محمد بن عبد الوهاب"....

كانت تقلب الملفات وتقرأ العناوين بسخرية واضحة وتنظر إلي بعينين ملؤهما غضب شديد:

- ما علاقة هذه المواضيع بمادة الرياضيات؟

حاولت أن يكون ردي هادئاً وخالياً من أي انفعال:

- حصة نشاط مفتوح وأحببت أن أشجع الطالبات على القراءة والكتابة في...

لكنها قاطعتني بحدة:

- نعم تشجعيهن على الكتابة عن علماء ومواضيع خاصة بالرياضيات.

- ستكون مواضيع مكررة ولن تثير انتباه الطالبات، لأنها موجودة في المنهاج الدراسي فعلا، وأنا تركت لهن حرية اختيار المواضيع...

قاطعتني بحدة:

- خطأ، هذا عمل غير مقبول وليس تربوياً.

- لماذا لا بد أن تكون المواضيع محددة ومملة، لاحظي أن الطالبات كتبن وليتك تحضرين حصة النشاط لتستمعي للنقاش وحماس الطالبات...

قاطعتني:

- لن تكون هناك حصص نشاط لك، لقد سحبت الحصص منك. لم أكن أتوقع منك هذا.

- كان رأيي من البداية أن توزيع الحصص هكذا ليس عملاً صحيحاً والأجدى أن تكون حصص انشطة فعلية.

تركت أحد الملفات التي كانت تقلب أوراقه بغضب وقالت:

- لهذا عاقبتني بهذه الطريقة؟

- كيف تفكرين؟ أنا ببساطة أحببت أن تتوسع مدارك الطالبات، ويخترن مواضيع يحببن أن يعرفن عنها بعيداً عن رتابة المناهج الدراسية ليتعلمن كيف يبحثن عن المعلومات من مصادر...

قاطعتني:

- هذا غير مسموح يجب أن تتقيدي بتخصصك.

مددت يدي لأخذ الملفات، لكنها وضعت يدها عليهن وأشارت برأسها علامة الرفض. حزنت فعلا لأنني أحببت تفاعل البنات، كما أحزنني موقف المديرة المتصلب. وأغضبني كثيرا مصادرتها لتلك البحوث. تم سحب الحصص الإضافية من جدولي. لم أناقش الموضوع مع الطالبات منعا لمزيد من الشد والجذب مع المديرة.

سوء فهم

الأبلة سناء، معلمة للغة العربية من مصر الشقيقة، تملك شخصية رائعة ولها علاقات طيبة مع الجميع. ذات يوم دخلت علينا وهي تسب وتلعن وتتهم الطالبات بالغباء والعبط، "ما الذي حدث يا سناء ماذا فعلت الطالبات؟" فترد بعصبية، وهي تشرح ما قامت به الطالبات من فعل غير مقبول مطلقا، لقد علقت الطالبات لوحة في الصف خاصة بقواعد اللغة العربية وكما هو سائد يضعن عبارة تحت إشراف الأبلة ويكتبن اسمها." لكن بمنتهى الغباء كتبن: تحت إشراف الأبلة سناء، سناء بالسين!"

"وما هو الخطأ أليس اسمك سناء؟"

"أيوه سناء، لكن البنات كتبوا سناء بحرف السين"، رددت بغضب:" بحرف السين"، لتبين لنا حجم الخطأ الفادح. لكننا لم نفهم أين الخطأ!

"سناء بحرف السه...السه مش السين". وفردت اللوحة التي شطبت اسمها عليها وكتبت بدلا منها ثناء. البعض انفجرن ضاحكات، والبعض عبرن عن دهشتهن بفتح عيونهن وأفواههن. لقد كنا جميعا نناديها سناء وهي ثناء. وظل ذلك الموقف مجال للتندر لفترة من الوقت.

بينما كنت اتبادل الحديث مع بعض المعلمات في المكتبة، وأمام بعضهن دفاتر واجبات الطالبات للمادة التي تدرسها كل منهن، كان أمامي دفاتر الطالبات لمادة الرياضيات لأحد الفصول وكنت أتأكد من حل مسائل الواجب، وأتفاجأ بأن بعض الدفاتر تم تصحيحهن من معلمة الاجتماعيات بعبارة كبيرة: أحسنت

وعلامة صح كبيرة. سألتها باستغراب:" ما الذي تفعلين كيف تصححين دفاتر الرياضيات؟ ألا تنظرين ما تفعلين بالضبط؟" وأريتها إحدى الصفحات ففتحت فاها وصرخت مستغربة، واتبعت ذلك بنوبة ضحك طويلة. وشرحت لي أن التصحيح بالنسبة لها مجرد وضع علامة وكتابة العبارة نفسها للجميع فلم تنتبه وهي منهمكة بالحديث أنها مدت يدها لدفاتر لا تخص مادتها. لقد كانت معلمة تتمتع بشخصية ظريفة تحب الضحك، ولا تتعامل مع أي موضوع بجدية. وكانت مستغربة لماذا أدقق في الأمر، ونصحتني بأن أتعامل مع الأمر ببساطة.

تحرش

جاءت المديرة للمكتبة وأنا أجلس فيها مع الأستاذ أحمد وهو معلم للرياضيات، كان يبدو عليها القلق الشديد واقتربت من الأستاذ أحمد وهمست له بكثير من الجدية:

- اذهب الآن من فورك، وخذ معك الأستاذ محمود معه حصة الآن. أبعده من المدرسة حالا.

كان صوتها يشي بالكثير من القلق والخوف، وتابعت:

- ليس هناك وقت كاف للشرح، لابد أن يتم تهريب محمود من المدرسة، في الإدارة الآن مجموعة من الأهالي ومعهم رئيس لجنة أولياء الأمور وهو من الشخصيات المحترمة جدا وهو مسؤول في المجلس المحلي، جاء يبلغني أن هناك شكوى تحرش جنسي بالأطفال والمتهم الأستاذ محمود. هذا موضوع خطير ولو أمسك به الأهالي سيقتلونه. لا تسمح له بالذهاب لبيته خذه الآن إلى بيت أحد المصريين في صنعاء وليحجز على طائرة الغد تذكرة المغادرة إلى القاهرة. لو يبقى يوماً آخر هنا سيتم قتله. هل تفهم؟

بدت علامات الاندهاش على وجه الأستاذ أحمد، وكان واضحا أنه يحتاج بعض الوقت ليستوعب ما يسمع، لكن المديرة كان صوتها حازما ممتلئاً بالخوف بطريقة مرعبة:

- تحرك سريعا، الآن وأنا سأحاول تعطيلهم في الإدارة لتتمكنا من الخروج اركبا أول سيارة أجره تجدها أمامك.

قفز الأستاذ أحمد ينفذ ما تقول، وعادت المديرة للإدارة، تبعتها لأعرف ما سيدور هناك. شرحت المديرة لأولئك الأشخاص الثلاثة، بعد أن وقفت أمام اللوحة التي يقع عليها جدول الحصص الدراسية، والتي كانت معلقة على أحد الجدران في غرفة الإدارة، بأن الأستاذ محمود حسب الجدول لديه حصة وقد أرسلت من يستدعيه لكن يبدو أن الأستاذ لم يحضر اليوم، وشرحت أنها طلبت من أحد المعلمين أن يذهب لإحضاره من بيته. ظهرت علامات خيبة الأمل على الوجوه وبادر أحد الحاضرين بالقول:

- أنا أعرف أين يسكن هذا المجرم، سنذهب نحن لإحضاره.

قالت المديرة تخاطبهم وهي تحاول أن تبدو طبيعية:

- لا بد أن هناك خطأ ما، فالأستاذ محمود معلم معروف بأخلاقه الطيبة...

لكن تعليقها لم يلق ترحيبا طيبا من تلك المجموعة، وشرح لها أحدهم بحنق إنهم متأكدون مما يقولونه، وهم لم يأتوا للمدرسة قبل أن يتأكدوا من صحة الخبر، فقد سألوا جميع الأطفال الذين التحقوا بدرس للقرآن الكريم مع الأستاذ محمود في المبنى الملحق بالمسجد، والكل شهد بذلك، لقد كان الأستاذ يتحرش جنسيا بالأطفال.

قاموا على الفور وغادروا الإدارة ورئيس مجلس الآباء يشرح لها بأنهم سيتولون الأمر، ولا علاقة للمدرسة بذلك، لأن الشكوى لتصرف من المعلم حدث خارج المدرسة.

بعد خروجهم وضعت المديرة رأسها بين يديها وهي لا تصدق ما سمعت، قالت لي بصوت يملؤه الشك والخوف:

- الأستاذ محمود؟ أستاذ القرآن والإسلامية؟ مستحيل ...مستحيل. أنا لا أصدق.

قلت لها:

- ألم تقولي إن من أبلغك هو شخص موثوق به ومحترم؟

أجابت بكثير من الحيرة:

- نعم.. نعم، هو كذلك، وهذا ما يخيف في الموضوع.

سألتها:

- لماذا كذبت عليهم وساعدت الأستاذ على الهرب؟

التفتت ناحيتي وعيناها مملؤتين بالرعب:

- الا تفهمين؟ سيقتلونه. لو أمسكوا به سيقتلونه بكل تأكيد. هذا موضوع لا نقاش فيه، ليهرب ربما يكون في الأمر خطأ ما، ولو كان كما قالوا - وأنا استبعد هذا- فقد نال جزاؤه فها هو الآن سيترك البلد خائفا ولن يتجرأ على العودة إلى هنا ثانية.

لم أر أنه من المناسب أن أدخل في جدل معها بشأن ذلك المعلم، لقد تم تهريبه من المدرسة بشكل سريع وفي اليوم التالي غادر البلد. ولم اسمع شيئا عما فعله أولياء الأمور بعد ذلك.

مرض المديرة

عدت من جديد للمدرسة بعد إجازة دون راتب بدأت في العام ١٩٩٣م واستمرت لخمس سنوات - بسبب طبيعة عمل زوجي، وكانت الاجازة تجدد كل عام- انهيت الإجازة رسميا في العام ١٩٩٨م، وبدأت الدوام في المدرسة كما طُلب مني في الوزارة، استغرق الوقت عاماً كاملاً ليعود اسمي على كشف المرتبات للمدرسة، فعملت عاماً كاملاً مجانا بفضل الاجراءات الروتينية الرتيبة في مكتب التربية وديوان الوزارة. وعرفت فيما بعد أن ذلك حدث لأنني قدمت إجازة رسمية فعلية، ولو أنني عقدت اتفاق مع مديرة المدرسة لكنت عدت واسمي موجود في كشف المرتبات، وفي فترة غيابي سيكون هناك من سيستفيد من راتبي. هكذا تجري الأمور عادة، لكنني اخطأت وعقدت الأمر وسعيت وراء إجازة رسمية! ونلت العقاب.

علمت أن مديرة المدرسة مريضة، أصيبت بالسرطان وتلقت العلاج في جمهورية مصر لفترة حتى بدأت بالتعافي. أصبح حضورها للمدرسة نادرا. شعرت بالتعاطف معها، ولمحت بوادر معركة خفية بين الأبلة أسماء والأبلة فيروز تلوح في الأفق، من ستخلف المديرة في منصبها. المديرة زكت فيروز لتقوم نيابة عنها في فترة غيابها المتكرر بحسب تكليف رسمي رفعته لمكتب التربية. أسماء لم تستسلم وكانت تحاول الحصول على قرار تعيين لمنصب مديرة للمدرسة فهي ترى نفسها الأكثر كفاءة واستحقاقا للمنصب.

عودتي للمدرسة لم تعجب المديرة ولا فيروز، فمنصب مديرة المدرسة من حقي بحسب قانون الأقدمية وحمل مؤهل جامعي، ومنعا للجدل أبلغت المديرة أنني لا أفكر في منصب مديرة المدرسة لأنني لن استقر طويلا وقد أسافر مرة أخرى وأضطر لأخذ إجازة. تغيرت بعض الأمور في المدرسة خلال مدة غيابي، وجوه غادرت المدرسة ووجوه جديدة حلت محلها، المدرسة – الآن- فيها عدد أكبر من المعلمات اليمنيات يدرسن في المرحلتين الإعدادية والثانوية، عدد المعلمين العرب تقلص إلى حد كبير.

تدهورت الحالة الصحية للمديرة، زرتها في بيتها، وضعها الصحي صعب ويزداد سوءا بمرور الوقت. هي المرة الاولى التي أشاهد فيها مريضاً بالسرطان. سمعت كثيرا عن هذا المرض، لكنني أقف لأول مره أمام مصابة بالمرض...

اخبرتني أنها لم تنتبه للعلامات الأولى للمرض، بدأ الورم في صدرها، وظنت ذلك أمراً طبيعياً لأنها ترضع ابنتها الصغيرة، ابنها الكبير لفت انتباهها وسألها مشيراً لصدرها ما هذا الورم يا أمي؟ يبدو أنها تأخرت في اكتشاف وعلاج المرض.

وبدأت رحلة العلاج، في البداية استجاب جسمها للعلاج، وتحسنت حالتها، وشفيت، لكن بشكل مفاجئ انتشر المرض من جديد في جسمها، هذه المرة في الدماغ.

سرطان الثدي من أكثر السرطانات بعد سرطان الرئة التي تقف خلف انتشار السرطان في الدماغ...المحزن أنه يمكن للمرأة أن تعيش لسنوات مع سرطان الثدي حتى لو انتشر في جميع أنحاء الجسم، لكنه في حال وصل للدماغ فلن يكون أمامها سوى بضعة أشهر للعيش.

سرطان الدماغ الذي أصيبت به يسمى سرطان ثانوي، أو انتشاري وهو نتيجة انتشار خلايا السرطان عبر الدم لخلايا الدماغ

علامات الألم الشديد تبدو واضحة على ملامح وجهها...وفي المراحل الأخيرة للمرض كنت أشعر أن ملامحها تتغير ...العينين تحديدا.

انتابتني مشاعر غريبة ومتناقضة، كنت دوما أشعر بالغيظ من معاملتها غير العادلة لي، ربما تخيلت أن يجمعنا لقاء ودي يوما في مناسبة ما، بعيداً عن أجواء المدرسة كي أعاتبها وأشرح لها مشاعري تجاهها وأفهم منها سبب معاملتها لي بتلك الطريقة. لكنني لم أتخيل مطلقا هذا الموقف، أن أراها بهذا الضعف والوهن.

قالت لي بصوت ضعيف ومتعب:

- لقد تعبت إلى متى يستمر هذا؟ أريد أن أموت.

كلمات المواساة والتشجيع في مثل هذا الموقف صعبة جدا.

حاولت أن أشجعها وأدعو الله لها بالشفاء، ابتسمت بحزن شديد وقالت:

- أشعر إنها النهاية. الموت راحة من كل هذا العذاب.

عندما خرجت من عندها قابلت إحدى أخواتها التي جاءت لتعتني بها قابلتني في الصالة وعيونها ممتلئة بالدموع، وبصوت تخنقه العبرات قالت لي:

- أدع الله أن يلطف بها المسكينة تتألم كثيرا.

احتبست الكلمات في حلقي، الموقف محزن للغاية. أي ألم هذا الذي يجعل الأحباء يتمنون الموت لمن يحبونهم، ليجنبوهم تجرع المزيد من الألم، ألم تعجز المسكنات عن التخفيف منه؟

ماتت المديرة بعد معاناة طويلة مع المرض، زرتها عدة مرات وفي كل زيارة كانت أوضاعها الصحية تزداد سوءاً. في الزيارة الأخيرة قالت لي بصوت متعب:

- متى سأموت تعبت.

فليرحمها الله، ماتت، وارتاحت من كل ذلك العذاب والالم.

كان خبر موتها مؤثراً، وبدأت علامات الحزن على الجميع في المدرسة. الموت زائر غريب ومخيف يأخذ الناس بقسوة.

عند موت شخص ما أشعر بأني لا أستطيع التفكير فيه، فهو غادر عالمنا ...وأجدني مستغرقة في التفكير في حقيقة الموت، فاليوم مات هذا الشخص وفي الغد سأكون أنا. الحياة غريبة لا أحد يعرف متى سيزوره الموت. نعم الموت حق لكنه رحلة مجهولة.

بعد فترة من وفاة المديرة زار الأستاذ حميد المدرسة، كان الحزن العميق يطل من عينيه، عندما رأيته اقتربت منه لتعزيته فحمد الله وشكره وقال لي:

- موتها كان صدمة كبيرة لي، لكن بالرغم من كل شيء كان الموت راحة لها...

كان يتحدث بحزن عميق، واستطرد قائلا:

- لقد كنت وفيا معها وفعلت كل ما أستطيع فعله لأجلها، أخذتها للعلاج في مصر، وشفيت في بداية الأمر؛ لكن المرض هاجمها من جديد، خمس سنوات وهي تعاني لم أقصر معها...الله يعلم أنني لم أقصر معها...

سكت قليلا، وعلامات الحزن ترتسم بوضوح على وجهه، وقال:

- بالرغم من أن مرضها أرهقني ماديا، لكنني خصصت مبلغاً من المال من أجل تأدية فريضة الحج عنها سأدفع المبلغ لشخص قريب ليحج عنها.

وسألته باستغراب:

- ولم لا تحج أنت عنها؟

فأجابني أنه لم يحج بعد وبالتالي لا بد أن يحج أولا ثم يحق له أن يحج عنها، ومن الصعب أن يترك الأطفال الآن. ولو أجل موضوع الحج عنها سيضيع المبلغ المالي الذي خصصه لذلك، وعندما يتزوج لن يتمكن من تخصيص مبلغ للحج عنها بعد ذلك. شعرت بالغرابة وهو يذكر الزواج.

إنها الحياة ما أن يغيب أحد البشر، ويدفن تحت التراب حتى ينتهي دوره، ويستمر الناس في حياتهم. نعم الحياة لا تتوقف لموت أحد.

عملت المديرة الجديدة على الاستغناء عن خدمات الأستاذ حميد تدريجيا، إلى أن توقفت زياراته تماما للمدرسة.

المديرة الجديدة

بدأ عهد جديد، عهد إدارة فيروز، هي الآن المديرة دون منازع. لم تتقبل ذلك الأمر أسماء لأنها مقتنعة أنها الأصلح لهذا المنصب، لكن كل أحلامها تبخرت عندما صدر قرار رسمي بتعيين فيروز.

فيروز تعاملت مع الجميع بفوقية غريبة، فمنصبها جعلها أكثر حدة وسوءاً. وانتقلت المدرسة بمن فيها لملكية المديرة الجديدة.

عندما أقارنها بالمديرة السابقة لا تكون المقارنة في صالحها. فالمديرة السابقة كان ينقصها الكثير من الصفات لتكون مديرة جيدة؛ لكنها رغم عنادها كانت تمتلك نوعاً من طيبة القلب، عكس المديرة الجديدة.

المعلمات شعرن بالخوف لفكرة أن تنجح أسماء في سعيها وتصبح هي مديرة المدرسة، كان ذلك كابوساً بالنسبة للجميع، لذا اجتمعن ذات يوم، وقررن كتابة طلب لمكتب التربية يعززن فيه موقف فيروز لتكون هي المديرة.

كتبت معلمة اللغة العربية الطلب بصياغة مؤثرة، وطلبت إلى الجميع التوقيع على الطلب، وقعت بدوري على الطلب مثل بقية المعلمات، وظننت أن فيروز ستفهم ذلك، وتعتبر موقفي دليلاً على حسن نيتي تجاهها؛ لكن ذلك لم يكن له أية قيمة عندها، هكذا بدأ من تصرفاتها وأسلوب تعاملها معي.

تجاهلت تلك الإشاعة التي سرت في المدرسة وكانت هي وراءها...بأنني فقدت كفاءتي السابقة في التدريس ...وسمعت ذلك منها وهي تبرر لماذا لن تسمح لي بتدريس أي من الصفين الثالث الثانوي أو الثالث الإعدادي؛ فحسب

رأيها أن فترة الإجازة الطويلة التي أخذتها أثرت على مستواي العلمي...وستعيد تأهيلي من جديد.

لم أستطع أن افهم لماذا الإصرار على إثبات عدم أهليتي، لكنني قلت لا بأس إذا كان ذلك يريحها لا يهمني الأمر.

أوكلت مهمة تدريس الصف الثالث الثانوي لمعلمة الرياضيات العراقية فدوى.

جلست فدوى على مقعد بجانبي، وأنا اقوم بتصحيح واجبات الطالبات. قالت لي بشيء من الود: إنها متزوجة من سنوات ولم تنجب، والآن ولأول مره يحدث الحمل، بعد رحلة علاج طويلة.

التفت ناحيتها، وابتسامة عريضة على وجهي ووقفت احتضنها:

- ألف مبارك فدوى، هذا خبر جد سعيد.

علامات السعادة ملأت وجهها، أخبرتني أن تدريس الثالث الثانوي سيكون مرهقاً لها، خاصة وأنها للمرة الأولى التي تتولى تدريس هذا الصف، وهذا المنهج للرياضيات، وتتمنى أن أبدل معها الجدول تقديراً لظرفها الصحي.

أجبتها أنه لا مانع عندي، لكن عليها التأكد من أن مديرة المدرسة موافقة. وألحت على مديرة المدرسة فوافقت المديرة على مضض.

كان لا يمر يوم دون سماع صراخ المديرة داخل المدرسة، وهي تسب هذا أو تشتم تلك. استلمت جدول فدوى، وبدأت بتدريس الصف الثالث الثانوي لأول مرة في المدرسة.

مرت ثلاثة أسابيع على تدريسي للثالث الثانوي، وفي أحد الايام وأنا منشغلة بشرح أحد الدروس في الصف الثالث الثانوي، دق باب الصف، إحدى المشرفات أخبرتني أن المديرة تريدني في الحال لأمر هام.

ذهبت مسرعة للإدارة وجدت موجه الرياضيات الأستاذ نجيب قف إلى جانب المديرة وما أن رآني حتى سلمني ورقة عليها جدول للحصص وأبلغني أن هذا جدولي الجديد.

موقف غريب، هكذا دون سلام ولا كلام، نظرت للجدول وإذا به جدولي السابق. فسألت لماذا؟

أجابني الموجه بكثير من النزق والعصبية أن هناك شكوى وصلت لمكتب التربية بأني أدرس الطالبات في الثالث الثانوي بطريقه غير سليمة، وهناك كثير من الأخطاء التي أقوم بها.

- حقا؟

قلت ذلك بعجب، وأنا انظر للموجه، وأضفت:

- جميل جدا أنت هنا بشكل مفاجئ، وأنا لدي الآن حصتين متتابعتين للثالث الثانوي، احضر الحصة الآن، وشاهد طريقة تدريسي للبنات وخذ بعض دفاتر البنات لتتأكد من صحة الشكوى، وتتحرى عن نوع الأخطاء التي أرتكبها.

رفع صوته بشكل عصبي، مع التلويح بيديه، والتهديد بسبابته:

- لا وقت لدي لهذا، وعليك الالتزام بالجدول الجديد.

فأجبته بحدة:

- لن اقبل بهذا الجدول لمجرد إشاعة تقول إنني أدرس خطأ...كيف تحكم علي هكذا! أنت لا تملك هذا الحق، عليك أن تعرف ما هو الخطأ الذي حدث مني وتوجهني ...أليست هذه مهمتك؟

كان رد فعله المزيد من الصراخ والتهديد، وخرج من الإدارة وهو مستمر بالزعيق والتهديد، وسمعت صراخه حتى غادر المدرسة.

مديرة المدرسة الواقفة أمامي هزت كتفيها باستخفاف، قلت لها بثقة:

- لن أغير جدولي لمجرد إشاعة.

قالت لي بطريقة حازمة:

- اسمعي يا أبلة أحلام، لا تكوني عنيدة. هناك شكوى، وقد تم تغيير جدولك وأنا مسؤولة أمام أولياء أمور الطالبات بوضع المعلم المناسب الذي يمتلك الكفاءة لتدريس بناتهم.

أجبتها بسخرية:

- حقا؟ ومن هو هذا المعلم الذي يمتلك الكفاءة؟

أجابتني:

- هناك معلم عراقي ممتاز في مدرسة التعاون، وسيقوم بتدريس الصف الثالث الثانوي هنا ويستكمل جدوله في مدرسة التعاون.

قلت بعناد:

- لكنني لن أترك تدريس الثالث الثانوي بهذه الطريقة الغريبة، فالموجه نجيب لم يقنعني، ولا يملك الحق بالتصرف معي هكذا.

ردت بشيء من الضجر:

- لم العناد؟ ألم تسمعي ما قال؟ هناك شكوى ضدك في التربية.

حاولت ضبط أعصابي والرد بهدوء:

- حقا! إذا كانت هناك شكوى ألم يكن على الأستاذ المحترم موجه المادة أن يأتي ليتأكد من صحة الشكوى، ويحضر معي أثناء تدريس البنات ليتأكد، ويفتش دفاتر البنات ليرى الأخطاء المزعومة...وإذا وجد هذا فعلا فمن حقي عليه أن يوجهني ويريني ما هو الصح، ويعطيني فرصة. أليس كذلك؟

لم يعجب المديرة ما قلته، فغيرت نبرتها وهي تحاول أن تبدو حكيمة:

- اسمعي يا عزيزتي دعينا نعالج المسألة ولا نؤثر على مستوى البنات...

لكنني قاطعتها بضيق شديد:

- لن تعالجي المسألة على حسابي، لن أدفع أنا ثمن غباء هذا الموجه.

- هل تعلمين ماهي نتائج عنادك؟ سيرسلون لجنة لاختبارك والتأكد من قدرتك على التدريس.

قالت هذا بلهجة فيها الكثير من التهديد، وبنظرات فيها الكثير من التخويف.

قررت أن أثير أعصابها فقلت لها:

- جميل جدا. هذا ما أريده بالضبط. لجنة تختبر مستوياي العلمي ومستوى الأستاذ عبد الجبار. نعم سأشكوه لمكتب التربية، لن يمر الأمر هكذا ببساطة.

حدقت مليا في وجهي، وكأن موقفي هذا لم يخطر على بالها، ثم زفرت بغضب، وخرجت من غرفة الإدارة. ولم يكتمل المشهد فأسماء التي لم تشأ أن يمر الموقف هكذا دون أن تتشفى وتعبر عن مشاعرها الفياضة تجاهي، مرت بجانبي وهي تتحدث بصوت مسموع:

- لا أدري أي نوع من المعلمات يتم إرسالهن للمدرسة...

قالت ذلك وهي تنظر ناحيتي بازدراء، وغادرت هي -أيضا- الإدارة، فجلست على الكرسي وأغمضت عيناي بعمق، لست أدري ما الذي سأفعله بالضبط لأنني كنت أشعر أنني اشتعل غضبا، ولا أريد أن أتصرف بطريقة تعطي المديرة وغيرها الفرصة للانتقام مني.

جاء بواب المدرسة العم أحمد وهو مستغرب يسألني ما هي حكاية الموجه:

- بأي حق يشتمك هذا الغبي؟

كم شعرت بالامتنان لموقف العم أحمد، فشكرته وأخبرته بألا يقلق وأنني أستطيع تسوية الأمر.

معلمات المدرسة كان لهن موقف رائع، لا يُنسى. فعندما سمعن ما حدث قررن التوقف عن التدريس في ذلك اليوم، وطلبن الاجتماع الفوري بالمديرة في مكتبة المدرسة. وأبلغنها أنهن يشعرن بالغضب لموقف الأستاذ نجيب وأنهن جميعا متعاطفات مع زميلتهن أحلام وإذا لم تتخذ المديرة الخطوات اللازمة لرد اعتباري، فالموجه أهان كل من في المدرسة بهذا التصرف، فإنهن سيقمن بالإضراب عن التدريس؛ حتى يتم رد اعتباري. أسقط في يد المديرة التي يبدو أنها لم تتوقع أن يحدث هذا، فوعدتهن بأنها لن تسكت وعليهن أن يعدن لصفوفهن وستقوم بالواجب، وعبرت لهن عن تعاطفها معي وأنها بكل تأكيد ستقف في صفي.

حدث ذلك وأنا لازلت أجلس على الكرسي في غرفة الإدارة، جاءت الأبلة شادية وجلست بالكرسي المجاور لي. وأخبرتني بما حدث، فهي التي أشعلت الموقف وطلبت إلى جميع المعلمات اليمنيات التوقف عن التدريس وطلبت الاجتماع الطارئ بالمديرة خلال فترة الاستراحة، واعتبار موقف الأستاذ نجيب إهانة لهن جميعا، وأقنعتهن بأنه إذا مر موقفه هكذا فستتعرض أية واحدة منهن لموقف مماثل مستقبلاً.

كانت شادية رائعة بموقفها، كروعتها في تدريس مادة الرياضيات. بعد عودتي للمدرسة من الإجازة والتي استمرت لخمس سنوات، جئت وهناك عدد

كبير من المعلمات اليمنيات لتدريس المرحلة الثانوية، ومنهن شادية. كان هناك قرار رسمي أُتخذ بيمننة التعليم، والاستغناء عن المعلمين العرب في المدارس عدا عدد محدود من المتعاقدين في التخصصات العلمية مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغة الإنجليزية، والتي لم يكن هناك أعداد كافية من المعلمين اليمنيين فيها. وكان أغلب المعلمين العرب الموجودين هم من العراق بسبب ظروف العراق بعد حرب الخليج.

موقف المعلمات أحرج المديرة ووضعها في موقف لا تحسد عليه، غادرت مكاني في الإدارة ودخلت المكتبة بانتظار أن ينتهي اليوم الدراسي، تبعتني الأبلة آمال والتي أدين لها بالكثير. جلست بجواري وهمست لي:

- هل أنت جادة فعلا في ايصال الأمر لمدير مكتب التربية حقا؟

أجبتها:

- نعم، لكنني لا أعرف كيف.

فقالت لي:

- لا عليك، هذا رقم المدير العام لمكتب التربية، اليوم عندما تصلين للبيت اتصلي به مباشرة لا تأخري الأمر، وأبلغيه بما حدث. أنا متأكدة ان موضوع الشكوى من اختراع المديرة والموجه. المدير العام سيرسل لجنة للتحقيق، وتنكشف المديرة، دعي الأمر ينقلب عليها.

كنت أشعر بالحيرة فقلت لها:

- لكنني لا أعرف المدير العام، وأشعر بالحرج.

- لا داعي للشعور بالحرج، عندما تتصلين به سترين كم هو طيب، سيسمعك، اتصلي فقط وسترين، لن يدع الأمر يمر هكذا وغدا أخبريني بما سيقول لك.

اعطتني قصاصة ورق كتبت عليها رقم هاتف منزل المدير العام. ثم أضافت رقم آخر وقالت وهي تبتسم قد يكون في بيته الثاني، فالمدير العام له زوجتان.

عندما اتصلت بالمدير العام بعد لحظات تردد، جاء صوته يبعث على الاطمئنان وأبلغني أن لا وجود لشكوى في مكتب التربية ضد أي معلم حسب علمه، وهو يستغرب تماما ما حدث، وثارت ثائرته عندما أبلغته أن مديرة المدرسة تريد المعلم العراقي الذي يدرس في مدرسة التعاون ليتولى تدريس الصف الثالث الثانوي في مدرستها. أبلغني أن هناك عجز في عدد معلمي الرياضيات، وأن هذا المعلم جدوله في مدرسة التعاون غير مكتمل ومن المفترض أن يتم نقله لإحدى المدارس البعيدة في الريف لتغطية العجز في أعداد معلمي الرياضيات هناك، وطالما هناك ثلاث معلمات للرياضيات في المدرسة فمن المستحيل إضافة معلم رابع. طلب مني أن اتصل به في صباح اليوم التالي بهاتف مكتبة ليتخذ الإجراء المناسب. كانت المكالمة طويلة، وتكلمت فيها بحرية تامة شرحت له كل شيء بالتفصيل فقد كنت تحت تأثير مشاعر الألم والغضب الشديدين، لم يقاطعني وتركني أقول كل ما أريد، وأبدى استغرابه لما حدث ووعدني بأنه سيحل الموضوع بشكل سريع، شكرته وانهيت المكالمة على أن اتصل به في اليوم التالي الساعة العاشرة، واعطاني رقم هاتف مكتبه.

عندما دخلت المدرسة في صباح اليوم الثاني، اقتربت مني الأستاذة آمال مستفسرة:

- هل اتصلت بالمدير العام كما اتفقنا؟

- نعم، فعلت ذلك وطلب مني أن اتصل به اليوم الساعة العاشرة عندما يكون في مكتبه، لقد أعطاني رقم الهاتف لمكتبه.

ابتسمت آمال بسعادة، وقالت:

- إذا لا تنسي أن تتصلي به.

لم أدخل أي حصة، لأني رفضت الجدول الجديد والمديرة لا تريد أن أعود للجدول السابق، لم يعاتبني أحد، ذهبت للمكتبة وبقيت هناك. وعند الساعة العاشرة خرجت من المدرسة سريعا باتجاه الدكان الواقع أمام المدرسة لاستخدام الهاتف، لم أجد صعوبة في الخروج من المدرسة فعلاقتي الطيبة بالعم أحمد سهلت الأمر، طلبت رقم المدير العام في مكتبه وذكرته بموضوعي فقال لي:

- الآن استدعي مدير إدارة التوجيه وأفهم منه ما حدث لا تقلقي سيتولى هو كل شيء.

فسألته:

ماذا بشأن الجدول أنا لا أريد أن التزم بالجدول الذي اقترحه الأستاذ عبد الجبار.

فقال لي:

- استمري دون تدريس لا تقلقي.

وسمعته ينادي مدير التوجيه فشكرته وانتهت المكالمة.

عدت أدراجي للمدرسة لأجد الأبلة آمال بانتظاري، تريد معرفة ما حدث فأخبرتها، فقالت لي مبتسمة:

- سأعطيك رقم هاتف مدير التوجيه، اتصلي به هو أيضا لتعرفي ماذا حدث.

وتابعت:

- من المهم أن تتصلي به، دعينا نعلمها درساً لا تنساه.

دخلت مديرة المدرسة المكتبة واقتربت مني وأخبرتني أنها تريد التحدث معي، واقترحت أن نتمشى معا في ساحة المدرسة.

رافقتها وكنت آمل أنها فكرت وقررت أن تصلح الموقف وتتصرف بمسؤولية كما يقتضيه مركزها في المدرسة. أخبرتني أننا زميلات قبل كل شيء، ويهمها مصلحتي وأن مثل هذه الأمور لا ينفع فيها العناد والمكابرة.

فسألتها:

- هل يرضيك موقف الأستاذ عبد الجبار؟

تهربت من الإجابة واخبرتني أنها تتفهم موقفي ومن حقي أن أدرس الصف الثالث الثانوي ولكن ليس هذا العام.

فقلت لها:

- وما الفرق بين هذا العام أو العام التالي؟

لم يعجبها سؤالي، فظلت تلف وتدور وتنصحني باعتبارها خبيرة ومديرة وتريد مصلحتي ولا تريد إحراجي.

- إحراجي! كيف؟

فقالت وهي تحاول أن تتقمص شخصية المديرة الحكيمة:

- هل تقدرين فعلا ماذا سيحدث لو أنك عاندت وقدمت شكوى، سيكون هناك لجنة وسيختبرونك...

شعرت ألا فائدة من الحديث معها، هي تريد تخويفي حتى أنفذ ما تريد.

فشكرتها على موقفها وقلت لها بعناد:

- سأقدم شكوى لمكتب التربية. أنا انتظرت أن تأخذي أنت بحقي من الأستاذ عبد الجبار، لكنك متبنيه لموقفه، لهذا سأشكوه في مكتب التربية وأتحمل نتيجة ما سيحدث. وأريد لجنة تمتحنني لأقتنع بمستواي الحقيقي.

تركتها ولم التفت لأعرف رد فعلها، في البيت اتصلت بمدير إدارة التوجيه، الذي أكد لي بأن لا شكوى ضدي في مكتب التربية، وأبلغني أنه يحدث أحيانا أن بعض المعلمين العرب وحتى يضمن أن يبقى في المدينة يكون عليه دفع بعض المال لمدير المدرسة والموجه ليبقى في المدينة لتجنب نقله لمكان بعيد في الريف حيث الظروف المعيشية صعبة بالنسبة له، ربما أن صفقة من هذا النوع قد تمت بين المعلم والمديرة والموجه لإكمال جدوله في مدرسة البنات. وهو يشكرني على جرأتي وإصراري على إجراء تحقيق. وقال إنه سيزور المدرسة نهاية الأسبوع في زيارة مفاجئة للمدرسة. وكررت سؤالي له عن مشروعية عدم التدريس حتى يتم التحقيق، فقال نعم لا تدرسي حتى يتم التحقيق.

أخبرت آمال التي زادت سعادتها، وقررت أن أستمر في تجاهل المديرة، أخبرت المديرة أنني لن التزم بجدول الأستاذ عبد الجبار، وهي ترفض أن أعود للجدول السابق وبالتالي يحق لها أن ترفع شكوى ضدي لمكتب التربية. حاولت أن تكتم غيظها لكنني تركتها وذهبت للمكتبة ووضعت ساق على الأخرى ومارست هواية القراءة في تلك الفترة.

في اليوم الأخير للأسبوع حضر مدير إدارة التوجيه ليرى الموضوع ويجري تحقيقاً حول الشكوى المزعومة. دخلت الصف الثالث الثانوي برفقته فقال للطالبات أنه لا وجود لأي شكوى ضدي في مكتب التربية، واستأذن مني بأن

يبقى مع الطالبات بمفرده ليناقشهن بحرية ويسمع رأيهن دون أن يتحرجن من وجودي، فخرجت وتركته معهن. وعند خروجه من الصف طلبت منه المديرة أن يرافقها، وذهبت معه لمكتبة المدرسة، بعد وقت قصير عاد مدير التوجيه للجلوس معي.

قال لي:

- كما أخبرتك لا وجود لشكوى ضدك في مكتب التربية، وبعد خروجك من الصف ناقشت الطالبات بخصوصك ولا وجود لأية مشكلة للطالبات معك، لكن مشكلتك الحقيقية هي مع مديرة المدرسة.

واستطرد قائلا:

- نعم مشكلتك مع المديرة، لقد أخبرتني أنك غير مؤهلة ولا تصلحين للتدريس.

وتابع:

- وطالما لا يوجد شكوى فبالتالي يحق لك أن تعودي لتدريس الثالث الثانوي بجدولك السابق رغما عنها. لكن نصيحتي لك وهي نصيحة من أخ، والخيار لك، سنعدل الجدول واتركي الثالث الثانوي للأبلة فدوى حتى تتجنبي الاحتكاك بمديرة المدرسة وعند نهاية هذا العام قدمي طلب للالتحاق بإدارة التوجيه. أنا استغرب كثيرا لبقائك كل هذه الفترة في المدرسة! هل تعلمين أن أغلب زملائك في الجامعة أصبحوا في مناصب مختلفة.

- وماذا عن الأستاذ الذي تريد المديرة أن يدرس هنا؟

أجاب:

- لقد وقع المدير العام أمر نقله إلى إحدى مدارس الريف، ونحن نشكر لك موقفك، لقد وفرت لنا معلماً للرياضيات في مكان هو بأمس الحاجة له. لقد أفسدت لهم خططهم.

قال ذلك وهو يكتم ضحكه.

وافقت على تعديل الجدول وترك الصف الثالث الثانوي، فشكرني وأخبرني أن مدير عام مكتب التربية طلب منه أن يبلغني أنه سيكون هناك أمر استثنائي بقبولي في المكتب عند نهاية العام الدراسي؛ لأن موضوع قبول موجهين كان متوقفاً في تلك الفترة.

طلب مدير إدارة التوجيه أن نجتمع في المكتبة مع المديرة، والأبلة فدوى والتي كانت علامات الأسى والحزن ترتسم على وجهها بوضوح والأبلة شادية، كان هناك تعديل لجدول الرياضيات في المدرسة للمرحلتين الإعدادية والثانوية، وإعادة الصف الثالث الثانوي للأبلة فدوى لأن شادية رفضت أن تحل محلها بحجة أنها تفضل أن تنتقل مع طالباتها، وتم التوقيع من الجميع على المحضر. شعرت بالسعادة الشديدة عندما أبلغ مدير التوجيه المديرة أن المعلم العراقي تم نقله لمدرسة في الريف لأن هناك نقصاً شديداً في أعداد معلمي الرياضيات وأن مدرستها بها ثلاث معلمات للرياضيات ولا يعقل إضافة معلم جديد، وأن الأستاذ نجيب أخطأ. وقدم اعتذاره لي باسم مدير مكتب التربية، وشكرني لأني تعاملت بمرونة مع الموضوع وقدر كثيرا أنني وافقت على ترك تدريس الصف الثالث الثانوي لحل الإشكال مع المديرة، وأن مكاني الحقيقي هو في مكتب التربية

وليس في المدرسة، وهي مسألة وقت فقط لإصلاح هذا الأمر. وأكد بوضوح أن لا وجود لأية شكوى ضدي في مكتب التربية.

لم تكن علاقتي بالمديرة جيدة من قبل، لكنها أصبحت سيئة بعد ما حدث. كما أنني فقدت حماسي للتدريس بالمدرسة.

كانت تردد أنها تريد معلم رياضيات لديه خبرة وكفاءة لترفع نسبة النجاح في مدرستها، ومن سخرية القدر أن نتيجة الطالبات لذلك العام كانت هي الاسوأ.

كان هناك شعور ملح يدفعني أن أذهب لأبارك لها بالنتيجة في نهاية العام الدراسي، كنوع من الانتقام لموقفها مني، لكنني نجحت في العدول عن ذلك. وحدثت نفسي بأني سأترك المدرسة على كل حال، ولن أستفيد شيئا، والأفضل أن أنسى كل شيء عنها وأمحوها من ذاكرتي.

الانتقال لمكتب التربية

بدأت مشواري العملي بالتدريس في مدرسة الجيل الجديد في العام ١٩٨٨م، تحت إدارة المديرة سميرة التي لم تقتنع بأن هناك معلمة يمنية بنفس كفاءة المعلمين العرب، لم تشجعني ولم تقدم لي أي دعم، لكنني بالرغم من ذلك أحببت مهنة التدريس وأحببت التعامل مع الطالبات وشعرت أنني أحمل رسالة آمنت بها وأحببتها، وانتهى مشواري في مدرسة الجيل أيضا تحت إدارة مديرة أخرى في العام ٢٠٠٠م، وبفضل غرابة تعاملها معي اقتنعت بترك التدريس في المدرسة والانتقال للعمل بالتوجيه في مكتب التربية، لقد قدمت لي خدمة من حيث لا تعلم. بعض من يكرهوننا يكونون سبباً في حصولنا على خير لم نكن نفكر فيه.

عالم التدريس في مدرسة الجيل الجديد كان مشواراً مليئاً بالتحدي والصعاب لكنني تعلمت منه الكثير، حصلت فيه على حب الطالبات وتقديرهن، وكذلك تقدير أهاليهن، ولا زلت حتى اليوم أقابل بين الحين والآخر بعض ممن كن طالبات لدي، يعبرن عن حبهن وتقديرهن لي، ويذكرن أنني تركت بصمة إيجابية في حياتهن، وأنهن أحببن مادة الرياضيات بفضلي. مواقفهن تلك هي وسام نجاح أعلقه على صدري بكل فخر.

كانت تلك الأيام التي قضيتها في المدرسة لها ذكرى من نوع خاص، رغم علاقتي غير المثالية بإدارة المدرسة، وموضوع الإدارة المدرسية هو قضية مهمة في مسألة التعليم في اليمن. فالدراسات الميدانية أثبتت أن هناك خللاً في تعيين مدراء المدارس. وأغلب المدراء والمديرات يتعاملون وكأن المدرسة هي ملك خاص لهم

بمن فيها، وهكذا يعطون أنفسهم الحق بأن يديروا المدارس بطريقتهم الخاصة. وهي غالبا الطريقة التي تعتمد على أسلوب الإدارة المستبدة التي لا صوت يعلو فوق صوت الإدارة، لا مجال للنقاش ولا للحوار ولا لمحاولة فهم حقيقة التعليم في هذا العصر الذي نعيشه. وحتى لا أظلم البعض فأنا لا أعمم هذا الرأي على جميع من يديرون المدارس، فهناك من يمتلك الكفاءة بكل تأكيد.

عملت في مجال التوجيه لمدة عام واحد في مكتب التربية بمحافظة صنعاء ومن عجائب القدر أني رافقت الموجه الذي كان سبباً غير مباشر لانتقالي لمكتب التربية. رافقته لمدة شهر في الزيارات التوجيهية لأغلب المدارس في البداية، وتلك الزيارات بصحبته كانت بمثابة دورة تدريبية عملية تعرفت من خلالها على طبيعة عمل الموجه وتفاصيل العمل وطريقة تقييم أداء معلمي ومعلمات الرياضيات، بعدها تم تكليفي بالتوجيه في المدارس القريبة وكان من ضمنها مدرسة الجيل الجديد. كانت المدرسة في تلك الفترة من المدارس المستقلة وهي تلك المدارس التي تتبع محافظة صنعاء لكنها موجودة في العاصمة لسبب غير مفهوم، وذلك قبل أن يتم توسيع العاصمة واعتبار كل من الروضة، وحدة، وعصر- جميعها مناطق تابعة للعاصمة.

تم تكليف الأستاذ نجيب بالتوجيه في المدارس البعيدة في محافظة صنعاء وكان لي الحق في اختيار ما يناسبني من المدارس المستقلة القريبة، هذه أحد المزايا التي تحصل عليها الأنثى في ظل الثقافة الذكورية.

من المفارقات أن مدرسة الجيل الجديد من المدارس التي سأزورها بغرض التوجيه. وفي زياراتي التوجيهية للمدرسة كانت المديرة تتظاهر بأنها مشغولة حتى تتجنب رؤيتي.

بقيت في مكتب التربية بمحافظة صنعاء لمدة عام كامل، تقدمت لاختبار مستوى في إدارة التوجيه المركزي بديوان الوزارة، وحصلت على قرار موجهة رياضيات في قطاع التوجيه المركزي.

خلال ذلك العام حضرت دورات تدريبية متنوعة لأول مره، وكان الفضل في البداية لآمال التي أدخلتني لعالم التدريب وحضور دورات تدريبية متنوعة. وبنهاية ذلك العام تقدمت بطلب إجارة دراسية ومنحة للدراسة في إحدى الجامعات بإيطاليا، بسبب انتقال عمل زوجي لروما، وتمت الموافقة على طلبي بسهولة دون صعوبة تذكر، الأمر الذي أثار غيرة بعض الموجهين الذي تقدموا بطلبات مشابهه لطلبي لكن طلباتهم لم يتم الموافقة عليها، وقيل لهم أن طلباتهم ستخضع للدراسة وتحتاج وقت للبت فيها. وبعد عودتي واجهت المشكلة ذاتها، تمت إحالتي للتحقيق عندما قابلت مدير عام مكتب التربية، لماذا؟ لأنني أخذت إجازة رسمية وهذه قصة تحتاج أن تحكى لوحدها. ملاحظة: مدير عام التربية تغير لم يكن هو ذات المدير.

مدينة روما

ها أنذا في بلد جديد، ومدينة لا تشبه غيرها من المدن، روما، التي انتقل عمل زوجي اليها، وهي المدينة الأكبر والأكثر سكانا في ايطاليا. وروما كانت عاصمة المملكة الرومانية قديما، لهذا تزدحم فيها الآثار والأماكن التاريخية الشهيرة، ويعتمد اقتصاد المدينة على السياحة وصناعة السينما، فهي من المدن الأكثر جذبا للسياح في العالم. تجذبهم الأسواق والمطاعم الغنية بالمأكولات الإيطالية المميزة.

الجزء القديم من المدينة يقع على قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي.

روما هي البلد الذي يوجد فيه مقر الفاتيكان. في روما حوالي ٩٠٠ كنيسة. وفي العام ١٩٩٥ أفتتح فيها أول مسجد، وهو أكبر مسجد في أوروبا

ترتبط مدينة روما في ذاكرتي بالقهوة، الأسبريسو تحديدا، حيث تذوقته في هذه المدينة لأول مرة، وأدمنت هذا النوع من القهوة. القهوة في إيطاليا هي حكاية عشق وغرام. هنا لا يشربون القهوة بل يعشقونها، ولشربها طقوس في البارات أو المقاهي حيث تستمتع بسماع صوت آلة الأسبريسو الذي يتدفق منها المشروب الساخن ليقدم في فناجين أنيقة.

في بداية الأمر، كنت أشعر بالضيق لشدة مرارة القهوة، لكن سرعان ماوقعت في بحر غرامها.

للقهوة في الثقافة الإيطالية طقوس، نعم أنها ثقافة تسري على الجميع، فخلال النهار يكون الأسبريسو هو الهدف، في الصباح ربما اللاتيه ماكياتو أو الكابتشينو أو أي نوع من القهوة المضاف إليها الحليب. ولا داعي لتحدد الاسبريسو فقولك "أون كافيه" يفهم مباشرة أنك تقصد الاسبريسو، حيث يسخن فنجان القهوة قبل أن يصب عليه القهوة حتى لايتأثر المذاق وتأتيك القهوة ساخنة، نعم فهي طقوس الايطاليين، وتشرب القهوة برشفة واحدة تكرر أكثر من مرة خلال النهار.

هنا عرفت أن هناك نوعين من القهوة: القهوة الإيطالية والقهوة الأمريكية. الإيطالي لايشرب إلا القهوة الحقيقية، القهوة الإيطالية.

انتقلت القهوة لإيطاليا في القرن السابع عشر بانتقال أول مقهى للقهوة إلى البندقية وعندما زادت شعبيتها افتتحت المقاهي في المدن الرئيسية في جميع أنحاء إيطاليا. وبلغت درجة الاعتزاز بالقهوة الإيطالية أن قهوة النيسكافيه المشهورة عالميا فشلت فشل ذريعا في دخول السوق الإيطالي، لم تجد قبولا لدى الإيطالي المتذوق لقهوته والتي يراها هي القهوة الحقيقية.

المدرسة العربية الليبية بروما

عند البحث عن مدرسة عربية في روما لم يكن هناك سوى مدرسة عربية واحدة، المدرسة العربية الليبية، والتي تأسست عام ١٩٨٠م، وهي تابعة للسفارة الليبية، يعمل في المدرسة معلمين ومعلمات من جنسيات عربية مختلفة، المدير ليبي الجنسية وكذلك سكرتيرته... وكيل المدرسة الأستاذ حمدي مصري الجنسية.

عندما ذهبت للمدرسة لتسجيل ابنتاي في المدرسة، علمت أن هناك فرصة للعمل بالمدرسة لمعلم أو معلمة لمادة الفيزياء للمرحلة الثانوية، إضافة لمادتي العلوم والتقنية للمرحلة الإعدادية، هنا كل فصل يتكون من شعبة واحدة، وبذلك يكون عدد الحصص أخف. كنت أفضل تدريس الرياضيات لكن ما ينقصهم هو معلم للفيزياء. "تخصصك فيزياء، رائع، من النادر أن نجد من يحمل تخصص فيزياء للعمل في المدرسة"، هكذا قال لي وكيل المدرسة.

مبنى المدرسة مكون من ثلاثة أدوار، ساحة المدرسة ضيقة لا تتسع للعب الأطفال بحرية، لكن طابور الصباح كان يتم فيها، عادة كنت أصل للمدرسة قبل نهاية الطابور الصباحي. تقع المدرسة في شارع جانبي (شارع Massaua)، المتفرع من شارع نومينتانا Nomentana مبنى السفارة الليبية يقع خلف المدرسة مباشرة، وعادة ما يكون هناك زوار من السفارة للمدرسة.

طلاب المدرسة من جنسيات عربية مختلفة، كل من يحرص على تدريس أطفاله باللغة العربية في ذلك الوقت فهو يسجلهم في المدرسة الليبية. وغالبا هم من أبناء العاملين في السفارات العربية المختلفة.

الميزة هنا أن المعلم يحصل على جدول حصص ويحق له في يومين من أيام الأسبوع أن يغادر المدرسة بعد الحصة الرابعة. ليس هناك إلزام للمعلمين بالبقاء في المدرسة طالما انتهت الحصص. وفي الصباح يحضر المعلم قبل الحصة بدقائق. هناك مرونة في هذا الموضوع، المهم ألا يتأخر على موعد الحصة. هناك طابور للصباح لكن لست ملزمة بحضور فقرات الطابور.

معمل المدرسة

اكتشفت أن هناك معملاً للمدرسة في الطابق الأسفل.

شيء جميل ويفرح القلب حقا، معمل في المدرسة، إذاً ستكون حصص العلوم والفيزياء حصص حقيقية وليست نظرية، وسيتم تدريسها كما ينبغي، هكذا حدثت نفسي بسعادة بالغة.

نعم يوجد معمل في المدرسة، ولكن لا أحد يستخدمه، على الرغم من أن شركة إيطالية متخصصة بتأثيث المعامل المدرسية قد جهزته بمبلغ مالي ضخم، كما قيل لي.

غامرت وأخذت المفتاح ونزلت للدور الأسفل، وتجاهلت النصيحة التي سمعتها بأن لا أحد من معلمي العلوم استخدم المعمل وأن علي أن ألتزم بذلك. كان الغبار متراكم في كل مكان وخيوط العنكبوت الكثيرة تدل على أن لا أحد يمر من هنا. بدأت أقلب الموجودات، عدسات ومناشير زجاجية ومرايا مقعرة ومحدبة ومستوية، وشوك رنانة والكثير من الأدوات المستخدمة في معامل العلوم ...أشياء بسيطة لكنها مهمة جدا لحصص العلوم والفيزياء. وهناك الكثير من الصناديق الكرتونية التي لاتزال مغلقة لم تفتح بعد.

كانت حصص التقنية تدرس كما تدرس حصص القراءة، قال لي وكيل المدرسة: "مشي حالك!، لا داعي للتعب والبحث عن أدوات"!

يا للعجب! ...كيف امشي حالي، الكتاب فيه مواضيع تحتاج لأسلاك كهربائية ولمبات ومسامير وبراغي وغيرها من الأدوات البسيطة لتكوين دوائر

كهربائية بسيطة وغيرها...وتعريف الطلاب بالأدوات المختلفة. كتاب منهج التقنية هو كراس عملي لمادة العلوم، ومن الغريب أن يتم تدريسه بشكل نظري، خاصة في وجود معمل مدرسي متكامل في المدرسة لا زالت أجهزته محفوظة في الكراتين كما جاءت من الشركة التي جهزت المعمل. كراتين عديدة لم تفتح بعد.

ما فائدة المعمل؟

قيل لي لا أحد يستخدم أدوات المعمل ولا داعي لأن تفعلي ذلك. ستخلقين مشكلة.

- حقا! أية مشكلة؟

سيقال إنك تحاولين إثبات أن غيرك مقصر، وأنك الوحيدة التي تفهم. فهمتِ؟

كلا، لم أفهم.

المعمل موجود والادوات موجودة فما المانع أن استخدمه، لا أفهم. ليأتي التوضيح الذي يصعب فهمه ...الوضع هكذا ومن يقوم بتدريس المادة العلمية يدرسها بشكل نظري من الكتاب فقط، دون الحاجة للمعمل. أرجو ألا تثيري هذا الموضوع مرة أخرى...

طلبت المفتاح مرة أخرى لكن العامل كان قد تلقي أوامر بعدم اعطائي المفتاح ثانية. من حسن الحظ أن بعض الأدوات كانت لاتزال بحوزتي من المرة السابقة، احتفظت بها، واستخدمتها في الحصص، وفي نهاية العام سلمتها لذلك العامل الذي يحتفظ بمفتاح المعمل العجيب.

كان الأمر حقا عجيباً وغريباً وغير مفهوم بالنسبة لي، لماذا يكون هناك معمل متكامل في المدرسة ويبقى مغلقاً! لماذا دفعوا كل تلك المبالغ لأدوات لن يتم استخدامها في المدرسة!

يبدو أن العجب يغلف حياتنا كلها، وليس من المقبول أن يتساءل المرء ...ولو تساءل لن يجد إجابات.

على كل حال حاولت أن أتأقلم مع الوضع الغريب، وأتبع قانون المدرسة حتى لا أثير أية مشكلات.

الكتاب الأخضر

لكل مدرسة ما يميزها عن غيرها، هنا في المدرسة الليبية تجد اللون الأخضر يحيط بك من كل الجوانب. علم أخضر، وكتاب أخضر. حصلت على نسخة من الكتاب الأخضر من المدرسة، وهو كتاب مهم خاصة إذا علمنا أن مدير المدرسة هو من يتولى تدريس مادة الكتاب الأخضر بنفسه.

على جدران مبنى المدرسة من الداخل علقت عبارات منتقاة من الكتاب الأخضر، ومكتوبة باللون الأخضر.

هو كتاب أخضر اللون فعلا، كتب عليه باللون الذهبي العنوان "الكتاب الأخضر" – واللون الأخضر هو أيضا لون علم دولة ليبيا المسماة بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، وتم استبدال الدستور الليبي بالكتاب الأخضر. فالكتاب الأخضر إذا هو الدستور الليبي، وهو عقيدة معمر القذافي[١]

---

١١ الرئيس الليبي أو قائد الفاتح من سبتمبر.

السياسية والتي سميت بالنظرية العالمية الثالثة. احتجت بعض الوقت لاستيعاب هذه المعلومات.

فمعمر القذافي أسس الجماهيرية الليبية عام ١٩٧٧م، واعتبر أن النظرية العالمية الثالثة هي تجاوز للماركسية والرأسمالية وتستند إلى حكم الجماهير الشعبية، حيث يحكم الناس أنفسهم دون وصاية بأن يتم ذلك عبر المؤتمرات الشعبية التي توجد في كل حي سكني أو قرية في ليبيا، وتجتمع المؤتمرات الشعبية سنويا في دورة لوضع جدول الأعمال ومناقشة القضايا المحلية في إطار المؤتمر الشعبي الأساسي. شعرت بنوع من الاستغراب من أسم المؤتمر الشعبي، فهو يذكرني باسم الحزب الحاكم في اليمن: المؤتمر الشعبي العام، فهل هناك صلة من نوع ما، أم مجرد تشابه أسماء؟

في اليمن هناك كتاب أزرق اللون، كتاب الميثاق الوطني، والذي فُرض تدريسه في فترة من الفترات في المدارس، وهناك معهد خاص بالميثاق، وفي كل صحيفة لابد أن يعلو الصفحة الأولى منها عبارة مقتطفة من عبارات كتاب الميثاق الوطني، وفي التلفزيون يتم إذاعة مقاطع من الميثاق بشكل يومي! ومن أهم أهداف الميثاق الوطني تحصين الشعب اليمني من التيارات الفكرية الدخيلة، نعم تحصين وهذا التحصين جاء بقرار جمهوري من الرئيس اليمني بتاريخ ١٩٨٠ لتكليف لجان من مختلف القوى الوطنية اليمنية لصياغة ميثاق وطني يوحد القوى اليمنية المختلفة على منهج فكري واضح وثوابت استراتيجية ملزمة، وتم توزيع استمارات ونسخ من مسودة الميثاق الوطني على المواطنين، كما قيل، وواصلت اللجان الاجتماعات المتتالية برئاسة الرئيس، وفي أغسطس ١٩٨٢ تم إقرار النسخة النهائية للميثاق الوطني في أول اجتماع للمؤتمر الشعبي العام

والذي كان تحت شعار: من أجل ميثاق وطني يجسد عقيدة الشعب وأهداف الثورة. هناك تشابه عجيب.

الحصول على نسخة من الكتاب الأخضر المجلد بغلاف فاخر هو أمر ميسور في المدرسة، وجدت نفسي واقعة تحت دافع الفضول لمعرفة محتويات هذا الكتاب الأخضر اللون.

يستمع الطلاب لحديث المدير حول فلسفة القائد معمر القذافي في الكتاب الأخضر والذي يحتوي على عصارة فكر القذافي وفلسفته كما يقال. وقد تمت ترجمة الكتاب الأخضر إلى ٨٤ لغة كما جاء في نشرة للمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر.

على الطلاب حفظ الكتاب عن ظهر قلب، وفي نهاية العام هناك اختبار لمادة الكتاب الأخضر، شعرت بالقلق على ابنتي والتي لاحظت أنها لا تكلف نفسها عناء فتح ذلك الكتاب، فطمأنتني بأن العبارات والمقتطفات التي سترد في الاختبار معروفة وسيكتبونها في أوراق ويتم نقلها داخل لجنة الاختبار. يا إلهي هل ستمارسين الغش أنت أيضا!

فقالت محتجة:

-أمي الطلاب الليبيون لن يحفظوا الكتاب، فهل احفظه أنا؟ ألا يكفي الشعور بالملل الذي يشعر به الجميع في حصة المدير وهو يكرر نفس الكلام في كل مرة؟

وأردفت قائلة:

- لا تقلقي لن أمارس الغش، سأقوم بحفظ تلك العبارات التي تأتي في الاختبارات فقط، تلك العبارات المقتطفة من الكتاب الأخضر والتي تجدينها امامك على الجدران في المدرسة، على فكرة لقد حفظتها فعلا.

الثالث الثانوي

حجرة الصف الثالث الثانوي تقع أمام مكتب المدير مباشرة، ربما لم تكن تلك صدفة. عدد الطلاب قليل، أغلبهم يعيد دراسة الصف الثالث الثانوي للمرة الثانية. صف غير عادي يشبه إلى حد كبير طلاب المسرحية الشهير "مدرسة المشاغبين". طلاب آخر ما يشغلهم هو التعليم. التعامل معهم والتحكم فيهم كان معضلة بالنسبة لي. يتعمدون بشكل يثير الأعصاب، إضاعة وقت الحصة دون فائدة. تعليماتي وطريقة تعاملي مع الطلاب نجحت في كل الصفوف عدا هذا الصف الفريد. اتفقت مع الطلاب في هذا الصف أن نلتزم بنصف وقت الحصة - على الأقل - لمتابعة الدرس والنصف الآخر للضحك وسماع نكاتهم الظريفة. لكن تطبيق ذلك كان غير يسير. هل قرروا اختبار صبري مثلا؟

اشتكيت إزعاجهم لوكيل المدرسة، نصحني بالشدة وأن احمل العصا عند دخولي الصف:

- طلاب لا يفهمون سوى لغة العنف. تعاملي معهم كأنهم حيوانات وسيخافون ويهدأون وتشرحين الدروس بكل سهولة.

فقلت له:

- لكنني أفضل أن أتعامل معهم باحترام كي يبادلونني الاحترام ذاته، هذا أسلوبي.

يقول لي ناصحا:

- لا تتعبي نفسك لن ينفع هذا الأسلوب مع هؤلاء الحيوانات، لقد تعودوا على الضرب وتلقي الاهانات...

العصا والشدة والقسوة مرة أخرى. لكن أسلوبي لن يتغير في التعامل مع الطلاب. في الحصة التالية دخل معي وكيل المدرسة وجه سيل من السباب والشتائم للطلاب ونعتهم بالحمير وبالغباء وقلة الأدب، وقال إنه سيكسر عظام كل من يثير الفوضى وفجأة استدار ناحية ابنه الذي كان أحد الطلاب في الصف ووجه له صفعة عنيفة على خده. شعرت بألم شديد يعتصر قلبي حزنا على ابنه. أي أبٍ هو هذا؟ رفعت صوتي محتجة وأخبرته أنني سأتصرف أنا مع الطلاب ولا أحتاج لمساعدته.

ذات صباح وجهت عتاب للوكيل عن طريقة تعامله مع ابنه الشاب، طريقة التعامل العنيف هذه ستضعف وتمحو شخصيته، فقال لي: لا تقلقي لابد أن أكسر رقبته وإلا سيكون من الصعب التحكم فيه في هذا البلد!!

وتابع مفسرا أننا العرب نملك قوة وقدرات لا يملكونها في الغرب وهو يشعر أن عليه حماية ابنه حتى لا ينزلق...لم أفهم ماذا يقصد، ولم استوضح لأني وجدت النقاش معه كما يصفه البعض ب "حوار طرشان" يتم من طرف واحد، شعرت أنه سقط تماما من نظري، فتعامله مع ابنه والإصرار على سحق شخصيته تبين إنسان غير طبيعي بكل تأكيد هو بحاجة لعلاج نفسي، وشعرت بالحزن لأجل ابنه. هل سيثور يوما على هذه السلطة الظالمة، أم أن الأب نجح في سحقه تماما.

شرحت للطلاب أنني أريد صالحهم وأتمنى أن نتفق على أن يكونوا أكثر جدية. لكن في كل حصة كنت أشعر بأنهم ينجحون في إثارة اعصابي بابتكارهم طرق غريبة لا تخطر على البال بهدف إضاعة الوقت واستعراض خفة الدم ولعب بعض مشاهد من "مسرحية مدرسة المشاغبين" والتي يحفظونها ويؤدونها بكل احترافية.

ذات يوم شعرت بالخوف وبأن قلبي تزداد دقاته بعنف وذلك الطالب الجزائري ضخم الجثة يتجه ناحيتي مركزا عينيه بثبات في عيني بشكل أصابني بالرعب وجعلني ارسم سيناريو لما قد يقع من تهور لذلك الطالب ضخم الجثة، لكنه عندما وصل لجواري اتجه ناحية السبورة وبدأ في مسحها، السبورة نظيفة ولا تحتاج لتنظيف لكنه واصل تظاهره بتنظيفها بحركات متباطئة، كنت أبلع ريقي بهدوء وأحاول الضغط على أعصابي، شكرته وطلبت منه أن يعود لمقعده لكنه استمر في تنظيف السبورة وحاولت أن استمر في الضغط على أعصابي حتى لا ينفلت الزمام وأجدني اصرخ بأعلى صوتي، عندما انتهى من عملية التنظيف تلك بدأ في العودة لمقعدة بحركات بطيئة جدا تثير الأعصاب مع موجة من الضحك تعالت بين الطلاب، وركزوا أنظارهم على وجهي ليقيسوا أثر ما فعلوه. حاولت أن يخرج صوتي هادئا لا يحمل أي انفعال وأخبرتهم أنني سأتعامل معهم باحترام وأتوقع أنهم سيتعاملون معي بالمثل، ولن أسمح بضياع زمن الحصة. سيكون هناك التزام بالحصة. حاولت جاهدة أن أبدو متماسكة طوال الحصة حتى أثبت لهم أنني جادة.

يحدث مثلا عندما أكون منهمكة في شرح الدرس أن يلتقطوا كلمة أو عبارة من كلامي لتكون محور لنقاش طويل يصعب الخروج منه، وأذكر مصطلح مثل

"الطاقة"، عندها وجدت الطالب السعودي يرفع اصبعه عاليا. فيبدأ بالشرح أن طاقة في بلده تعني النافذة. وبالتالي كل طالب يريد أن يخبرني بالمصطلح المقابل في بلده. وأنا لابد أن انتظر واستمع للجميع، ثم نعود للدرس وهكذا. جربت طرقاً مختلفة ومتنوعة لأكون قريبة منهم وأكسب صداقتهم وبالتالي أضمن سماحهم للحصة أن يكون جزءا منها للدرس، لم يكن الأمر سهلا. وبدأ الأمر يتحول لمعاناة، فقبل الحصة بدأت أشعر بالصداع قبل دخولي للصف، ويلازمني ذلك الصداع العجيب طوال الحصة.

في أحد الأيام وبعد أن أضعت ما يقرب من عشرة دقائق وأنا أعتب عليهم تصرفاتهم الطفولية الخرقاء، اعتذروا لي ووعدوني بالهدوء والاستماع للدرس، لكن لحظات قليلة وبدأت إحدى الطالبات بتغيير جلستها على الكرسي والتفتت بكليتها للطالب الذي يجلس على الكرسي الخلفي لها وانهمكت في حديث هامس معه.

لم يكن هذا هو أسوأ ما حدث في الصف، لكنني لا أدري ما الذي حدث لي في تلك اللحظة. شعرت بشكل مفاجئ بأن ذلك التصرف كان هو القشة التي قصمت ظهر البعير، فبدأت بالحديث بصوت مسموع مع نفسي: "ما الذي أفعله بنفسي؟ ماذا فعلت لأستحق هذا؟ لا ...هذا كثير. لا.. لن استمر...أنا لا احتاج للعمل والقهر اليومي ...سأبقى في بيتي معززة مكرمة ..."

كنت أردد ذلك وأنا أجمع حاجياتي وأقذف بها في الحقيبة، ثم حملتها، وتوجهت بهدوء للخروج من الصف، موقفي صدم الطلاب فوقف البعض منهم أمام الباب لمنعي من الخروج. بدأ البعض منهم بالاعتذار وطلب السماح مني. لكنني كنت قد حسمت الأمر تماما. قلت لهم: أنني أتمنى لهم مستقبل زاهر

وليوفقهم الله لكنني لست مستعدة لأفقد عقلي. أزحتهم من أمامي بإصرار وخرجت مباشرة باتجاه مكتب المدير.

من النادر أن يدخل أي معلم مكتب المدير، ولو حدث ذلك فعليه طرق الباب والانتظار للسماح له بالدخول. لكنني فتحت الباب بشكل مفاجئ ودخلت باتجاه المدير الذي فغر فاه دهشة مع ضيفه الجالس أمامه وبدأ يتأمل من هذه المجنونة التي دخلت بهذا الشكل الفج. وجهت كلامي للمدير بشكل حازم:

- أنا آسفة سأترك العمل في المدرسة لكن من باب الشعور بالمسؤولية أبلغك لتبحث عن معلمة أخرى.

كان لا يزال ينظر لوجهي باندهاش، لم يستوعب بعد ما هي مشكلتي. فتابعت:

- أرجو قبول استقالتي.

خرجت مسرعة من أمامه مندفعة خارج المدرسة. لحق بي مدير المدرسة وهو يبلغني اعتذاره ويصف الطلاب بالغباء والفوضى وأنهم لا يستحقون أن أغضب بسببهم، وأضاف خذي راحة لمدة أسبوع حتى تهدأ أعصابك، ووعدني بأنه سيعاقب الطلاب. وقال إنهم يسببون له الصداع بسبب مشاكلهم التي لا تنتهي، وأبدى تفهمه لانزعاجي واستعداده أن يمنحني إجازة لمدة أسبوع حتى أهدأ وأعود للمدرسة.

اكدت له أنني لن أستمر بالتدريس.. ليس لدي أية رغبه بالاستمرار. ليس الأمر مجرد شعور بالغضب هو قرار كان ينبغي أن اتخذه من مدة.

شعرت براحة عجيبة، بقائي في البيت أراحني فعلا، لا ضغط، ولا قلق. مارست أعمالي اليومية بهدوء وراحة بال ونسيت الطلاب ومشكلاتهم. بعد انتهاء الأسبوع، أخبرني زوجي أن وكيل المدرسة أبلغه أنني لا أجيب على اتصالاته الهاتفية، كان يريد الاتفاق معي لترتيب عودتي للمدرسة. في الواقع كنت أرى رقم تلفونه على شاشة الهاتف النقال فأتجاهل المكالمة. قررت ألا أجيب، لا أريد العودة للعمل في المدرسة.

لكن زوجي قال لي:

- حسنا تستطيعين إبلاغه بهذا، لماذا تتجاهلين مكالماته؟

ابنتي ابلغتني إذا تركت المدرسة فهي ستترك المدرسة بدورها، سألتها متعجبة:

- لماذا؟

فقالت لي:

- الطلاب مزعجون ويتعاملون مع البنات بطريقة مستفزة؛ لكنهم يتعاملون معي باحترام لأنني ابنة الأبلة أحلام، إذا لم تعودي للمدرسة لن أذهب.

لذا قررت أن أجيب على مكالمات وكيل المدرسة، وتم الاتفاق أن تُلغى حصص الثالث الثانوي من جدولي.

عدت للمدرسة، وعاتبني الطلاب بطريقة مؤدبة:

-أهكذا تتخلين عنا أبلة أحلام؟

ابتسمت وتمنيت لهم التوفيق. لا أريد أن أضعف لأنني أعلم أنهم سيسببون الصداع لي من جديد، حصص الفيزياء للثالث الثانوي أسندت لمعلم الرياضيات، عندما قابلني عاتبني مبتسما:

-" ربنا يسامحك يا أبلة أحلام. عجبك أهيه جت على دماغي...الإدارة كلفتني بتدريس الفيزياء بدالك".

كانت الحصص لكل الفصول رائعة والتعامل مع الطلاب يتم بسلاسة، أخبرتني إحدى طالبات الثاني الثانوي أنها تحبني كثيراً، وتشكرني لأني جعلتها تحب الفيزياء وتفهمها لأول مره في حياتها.

أعداد الطلاب في الفصول مثالية، وهذا يجعل الحصة أكثر فائدة. الكتب حسب المنهج الليبي كانت مزدحمة بالمعلومات، يبدو أن من يضع المناهج يقوم بحشو الكتب بأكبر عدد من المواضيع دون الاهتمام بما يتناسب مع حاجة الطالب فعلا، وأثناء توزيع المنهج يتم اكتشاف أن تلك المواضيع كثيرة العدد، ولا تتناسب مع عدد الحصص المقررة وبالتالي لابد من حذف عدد من تلك المواضيع الكثيرة، والغريب أن هذا الأمر يتكرر كل عام دون تدارك المشكلة. وهذا يحدث بالطريقة ذاتها في اليمن وكل عام ينتظر المعلم نشرة بالمواضيع التي ستحذف لهذا العام. لماذا نتعلم مواداً علمية، وما سنستفيد منها في حياتنا كان هذا أحد الأمور الأساسية في تعاملي مع تلك الموضوعات...

الطالب عليه أن يفهم المصطلحات العلمية بشكل مبسط فلا تبقى بالنسبة له كأنها طلاسم، أو معلومات بلا قيمة يحفظها من أجل الاختبار، ثم يمحوها من ذاكرته.

الاختبارات

هناك اختبارات شهرية لكل صف، ومن الواضح أن الطلاب اعتادوا على عمليات الغش في المدرسة. فكرت في ابتكار طريقة لمنع الغش، أو بمعنى أدق تقليل حجم الغش.

لذا حاولت أن تكون الأسئلة غير مباشرة، وتعتمد على الفهم لا الحفظ، كلفت نفسي أن أضع أربعة نماذج لكل اختبار، النماذج تحتوي نفس الأسئلة لكن ترتيبها مختلف، فإذا كان السؤال الأول في النموذج الأول عبارة عن ضع علامة صح أو خطأ أمام العبارات، فأنه في النموذج الثاني يكون عبارة عن أكمل الفراغات لكنه يحتوي المعلومات نفسها...

هذه الطريقة تطلبت مني بذل وقت أكبر لتصميم الأسئلة؛ لكنها لا تعطي الطالب، الذي يريد أن يأخذ معلومة من طالب آخر قريب منه، الفرصة لذلك. تلك الطريقة كانت تربك أي طالب يريد الاستعانة بطالب آخر لمعرفة إجابات الأسئلة. كنت استمتع بمراقبتهم وهم يشعرون بالحيرة، وتفشل محاولات الغش من بعضهم.

استدعاني مدير المدرسة ذات يوم لمكتبه ليسألني عن موضوع الاختبارات، لقد وصلته شكوى. شرحت له وجهة نظري وأكدت له أن الطلاب يحصلون على الأسئلة نفسها، ولكن بترتيب مختلف وصيغ مختلفة ليتعلم كل طالب أن يعتمد على نفسه، وأخبرته أنني طلبت من الطلاب أن يسألوا عن أي معلومة لم

يفهموها. ووجودي في المدرسة هو لتسهيل فهمهم للمادة. وهدفي أن يصل الطالب لمرحلة الفهم لا الحفظ من أجل الاختبار.

صمت المدير للحظات، ثم أبلغني أنه يتمنى أن أعود للطريقة المألوفة للاختبارات، ولا داعي لهذه الطريقة الغريبة. قال ذلك بكثير من الأدب، وبرر موقفه بأن بعض أولياء الأمور سألوه عما يحدث.

مدير المدرسة شخص خلوق، ويتعامل مع الجميع باحترام، عادة يتعامل معنا وكيل المدرسة ومن النادر الدخول لمكتب المدير الذي يكون غالبا بابه مغلقاً.

لم أغير طريقة وضع الأسئلة كما طلب المدير، ولم يعاتبني أحد بخصوص ذلك. وأبلغت الطلاب أن ذلك لمصلحتهم، الأسئلة سهلة والهدف من الاختبار قياس مدى فهمهم للمواضيع التي يدرسونها. ومن واجبي أن أعيد شرح أية نقطة استشكل عليهم فهمها.

في الاختبارات النصفية للصف التاسع الأساسي، والصف الثالث الثانوي كانت الأسئلة وزارية، تأتي من ليبيا، عمليات الغش كانت ملفتة للنظر، وكأن الأمر طبيعي.

بحسب جدول المراقبة كنت أراقب طلاب الصف الثالث الثانوي، ولاحظت حركة الطلاب، فوقفت عند الطالب الذي رأيته يخفي قصاصات صغيرة من الورق، طلبت منه أن يعطيني إياها، ارتبك وأنكر وجودها. خاطبته بهدوء وابتسامة عريضة تملأ وجهي أنني رأيته يضعها في جيب البنطلون. أخرج بعضها ووضعها في كفي الممدودة إليه، وقلت له أن يعطيني البقية، أصر أن تلك هي كل ما لديه، لكن جيبه الآخر كان مملوءا بالقصاصات، انتظرت حتى أعطاني إياها...ابتعدت عنه وأحسست بحركة مريبة من طالب آخر، وهكذا جردت

الآخر من تلك القصاصات. وكلما رصدت حركة مريبة وقفت حتى أستلم تلك القصاصات أو أصادر قصاصة انتقلت من طالب لآخر على شكل صاروخ ورقي.

بعد انتهاء الاختبار وبينما أنا مع عدد من المعلمات كنت أبدي استغرابي لموضوع الغش في الاختبارات بهذا الشكل العلني، فحذرتني معلمة عراقية من ضبط محاولات الغش في الاختبارات خاصة لطلاب الصف الثالث الثانوي سيء الصيت. أخبرتني أنها فعلت ذلك ذات اختبار؛ لكنهم انتقموا منها، وحطموا زجاج سيارتها. قالت لي ناصحة:

- تظاهري أنك لا ترين شيئا، كلنا نفعل هذا، سياسة المدرسة تشجيع الغش، فلماذا تجلبين لنفسك المتاعب.

شعرت بالقلق من كلامها، هل يعقل أن الطلاب سيعبثون بسيارتي؟

لم يحدث هذا معي، ربما لأنني أتعامل بلطف معهم؛ لكنني ظللت أرصد حركات الغش وأصادر تلك القصاصات وأمنع انتقالها من طالب لآخر. لكن بأسلوب هادئ جداً، آخذ القصاصات فقط دون صراخ ولا إهانة للفاعل فقط ابتسامة عريضة ونظرات عميقة في عيني الطالب الذي يشعر بالحرج. قد أعلق أحيانا باستغراب:

- يا إلهي كل هذا العدد من القصاصات الورقية؟

فتتعالى ضحكاتهم، وأشاركهم الضحك. في اختبارات نهاية العام الوزارية للثالث الثانوي والتاسع الأساسي تم إعفائي من المراقبة، لقد أسعدني ذلك.

في أحد الأركان في الطابق العلوي وضعت المعلمات عدداً من الكراسي لجلوس المعلمات اللاتي لديهن فراغات بين الحصص. أبدت بعض المعلمات تبرمها من تعامل إدارة المدرسة مع العاملين بالمدرسة، الإدارة لا توقع عقود عمل مع أحد، قالت إحدى المعلمات:

- ما يحدث في المدرسة يعتبر عملاً غير قانوني ...يسمى عمل أسود " السوق السوداء"، هذا النوع من العمل غير مسجل في قوة العمل بالبلاد، وليس للموظف أو العامل أية حقوق. المدرسة تعمل هذا لتوظف معلمين برواتب أقل مما يتطلبه قانون العمل ولا تدفع ضريبة عنهم..

فقالت أخرى:

- المدرسة تستغل ظروف العرب، وتدفع للمعلم ٦٥٠ يورو فقط، والذي لا يعجبه الوضع الباب يفوت جمل.

وينتقل الحديث عن تلك الطالبة التي حضرت بلباس غير لائق صباح هذا اليوم. قالت إحدى المعلمات بطريقة أقرب للهمس:

- تخيلي أتت للمدرسة وهي تلبس قماش شفاف، صدرها كان واضحاً!

سألتها:

- هل ناقشها أحد في هذا؟ أو لفت انتباهها بأن هذا اللبس غير لائق؟

اتسعت العيون دهشة وقيل لي:

- انتبهي، ما تلبسه الطالبات هنا يدخل في باب الحرية الشخصية، ولا يحق لأحد الاعتراض.

- حقا؟

لتأتي الإجابة:

- هذا قانون هنا...

- أها!... إذاً نكتفي هنا بالتعجب والنميمة، شيء عجيب.

-لا تتعجبي -يا عزيزتي- فالبنت قبل خروجها من البيت رأتها أسرتها بكل تأكيد، ما علاقتنا نحن بالأمر؟!

لم يكن هناك زي رسمي خاص يلبسه الطلاب والطالبات، ولا أحد في المدرسة يضع الحجاب بين الطالبات والمعلمات. الاستثناء هو حجابي وحجاب ابنتي ومعلمة أردنية من أصل فلسطيني وطالبة ليبية.

الحرية الشخصية تطبق هنا على الجميع.

تهامست المعلمات ذات صباح عن معلم التربية الفنية الذي تحرش بفتاة صغيرة، أمسك بصدرها بطريقة لا تليق. المعلم المذكور يبدو في الخمسين من عمره له شعر رمادي طويل يربطه خلف رقبته، أتذكر أنني مررت ذات مرة بالقرب منه وألقى التحية بطريقة مؤدبة، هل يعقل أن تكون الإشاعة صحيحه؟ وجدتني أطيل النظر في وجهه كأنني أبحث عن ملامح المتحرش، لم أجد إلا إنسان لطيف، شيء عجيب.

معلمات المدرسة من جنسيات عربية متنوعة: سورية، فلسطينية، مصرية، عراقية، وأنا من اليمن. نجتمع عادة في ذات الركن عندما يصادف أن يكون هناك فسحة بين الحصص. يحدث أن نتفق للذهاب للمقهى أو البار القريب من المدرسة.

البار قريب ونذهب إليه مشياً على الأقدام، ذات مره أوصلتنا المعلمة العراقية بسيارتها إلى هناك بسبب تساقط المطر ذلك اليوم، فتزاحمنا داخل السيارة.

عند قرب نهاية العام نصحتني إحدى المعلمات أن أقدم أوراقي للعمل في المدرسة السعودية التي انتشرت الشائعات بأنه سيتم افتتاحها العام الدراسي المقبل، وقد تم فتح باب القبول للعمل بالمدرسة. هناك سيكون المرتب أكبر، وسيوقع الجميع عقود عمل تحفظ حقوقهم.

قدمت أوراقي للعمل بتدريس الرياضيات، لكن سبقني معلم الرياضيات في المدرسة الليبية وتم اعتماده، وكان ينقصهم معلم للفيزياء، تم قبولي لتدريس الفيزياء للمرحلة الثانوية، إضافة لتدريس فيزياء للصفوف من السابع حتى التاسع أساسي. في المنهج السعودي الفيزياء مادة مستقلة بذاتها ابتداء من الصف السابع أساسي، فمواد العلوم الفيزياء والأحياء والكيمياء لكل مادة كتاب مستقل وليست جميعها في كتاب واحد كما هو الحال في المنهج اليمني والليبي، وكل مادة منها يدرسها معلم مستقل.

مدرسة الملك عبد العزيز السعودية - روما

عام دراسي جديد بدأ انتقلت فيه للعمل في المدرسة السعودية. المدرسة تختلف كثيرا عن المدرسة الليبية. مساحتها كبيرة، ولها حوش فسيح مترامي الأطراف، الأشجار الكبيرة تحيط بها بجوار السور، ويغطي مساحتها المترامية الأطراف بساط عشبي أخضر، فيها مكان مخصص للصلاة ومقصف لبيع المأكولات والمرطبات، لكن لا يوجد معمل للعلوم في المدرسة. مدير المدرسة وعد بأن يكون هناك معمل سيتم بناؤه قريبا في موقع قريب من مبنى المقصف، ووعد بأن يتم التعاقد مع شركة لتجهيز المعمل بكل ما يحتاجه من تجهيزات، وهناك حجرة للرسم والفنون وحجرة للحاسوب، كما خُصصت غرفة واسعة مزودة بطاولات وكراسي ودواليب للمعلمات، وأخرى للمعلمين. تتكون المدرسة من طابقين بفصول واسعة جيدة الاضاءة، وسبورات بيضاء. المبني المدرسي تفصله مسافة واسعة من مبنى المقصف.

تقدم تقريبا أغلب المعلمين والمعلمات في المدرسة الليبية للعمل بالمدرسة السعودية، تم قبول الكثير منهم وكانت هناك وجوه جديدة.

مدير المدرسة سعودي الجنسية يمتلك موهبة الرسم فهو فنان متزوج من إيطالية اعتنقت الإسلام وترتدي الحجاب، حاول المدير أن يعينها معلمة للغة الإيطالية لكن السفارة السعودية رفضت ذلك التعيين، المدير دمث الأخلاق يتعامل مع الجميع باحترام وأخلاق عالية.

معلم التربية الاسلامية الأستاذ فهد شاب سعودي الجنسية، والأستاذ جاسم مشرف إداري يتابع أعمال المعلمين، ويجمع دفاتر التحضير ويترك بعض التعليقات عليها، هو -أيضاً- سعودي الجنسية وزوجته معلمة للغة العربية. وهناك زوجة أحد الموظفين بالسفارة سعودية الجنسية تؤدي عملاً إدارياً بالمدرسة، ومعلمة الاجتماعيات هي أيضا سعودية الجنسية.

بقية المعلمين كانوا من جنسيات عربية متنوعة من مصر والأردن وفلسطين وسوريا والجزائر والعراق وأنا من اليمن. الطلاب من جنسيات عربية متنوعة، وانتقل للمدرسة عدد من طلاب المدرسة الليبية.

تقع المدرسة بعيداً عن وسط روما، في أحد ضواحي مدينة روما، في شارع via di Grottarossa، وهو متفرع من شارع Via Cassia، عكس المدرسة الليبية التي كانت في أحد الشوارع المشهورة وسط روما.

أصدرت الإدارة قراراً واضحاً وصريحاً أن على جميع المعلمات الالتزام بلبس الحجاب، تغطية الشعر تحديداً، تم إعلان ذلك في الاجتماع الأول لإدارة المدرسة مع هيئة التدريس. احتجت بعض المعلمات؛ لكن الأستاذ فهد أكد أن الحجاب لا تنازل عنه ومن لا ترتدي الحجاب في الأصل عليها الالتزام بوضع الحجاب داخل المدرسة ولتخلعه عند باب المدرسة إن رغبت، وطبق هذا الشرط حتى على عاملات النظافة في المدرسة. وتولى الأستاذ فهد عقد محاضرات دينية مرة في الأسبوع للمعلمات في فترات الاستراحة عن الحجاب وغيره من المواضيع الدينية، وحدد يوماً آخر لمحاضرة دينية للطلاب والطالبات، الصلاة تقام جماعة لصلاتي الظهر والعصر، الإمام هو الأستاذ فهد وهو -أيضاً- من يخطب في صلاة

الجمعة التي يحضرها الجميع. كما أن الأستاذ فهد اكتسب صفة الشيخ في المدرسة، ومن له سؤال فقهي يتجه إليه ليعرف رأي الشرع في مسألة ما.

انسحبت بعض المعلمات وعدن من جديد للمدرسة الليبية بسبب موضوع الحجاب. تمسكن برأيهن بأن الحجاب حرية شخصية، ومن المضحك لبس الحجاب داخل المدرسة وخلعة عند بوابة المدرسة.

احتجت إحدى المعلمات للصفوف الأولية، وكانت صغيرة السن من سوريا، وجهت كلامها للمدير وللأستاذ فهد في أحد الاجتماعات، لماذا تم فرض الحجاب على من لا تتحجب؟ هي ليست مقتنعة ولا تجد أنه من المناسب لبس الحجاب داخل المدرسة وخلعه عند بوابة المدرسة، وبهدوء يجيب عليها المدير أن تعتبر ذلك أحد شروط العمل في المدرسة ولا علاقة له بموضوع الحريات الشخصية، كما تفعل بعض الجهات بفرض زي رسمي معين.

لكن بعد مرور فترة وجدتها تكثر الجلوس مع الأستاذ فهد، قالت لي أنها تدين له وللمدير بهدايتها، وإنها الآن تلبس الحجاب عن اقتناع تام.

أعداد الطلاب في مختلف الصفوف مثالية، الصف الثاني ثانوي كان فيه طالبان فقط، أحدهما ابن المدير. وكان هذا الصف هو الصف الأصعب بالنسبة لي، ابن المدير يعاني من حالة فقدان الثقة بالنفس، فقد ترك المدرسة لفترة سنتين، وهذا العام قرر العودة لاستئناف الدراسة من جديد، الطالب الآخر عبقري في الفيزياء والرياضيات وهذا مما جعل الهوة بين مستوى الطالبين كبيرة.

لا يوجد قسم أدبي في المدرسة، يوجد فقط القسم العلمي في المرحلة الثانوية كما في المدرسة الليبية.

معمل العلوم، كان لايزال تحت البناء، ويحتاج بعض الوقت ليصبح جاهزاً للعمل. في بداية العام الثاني تقريبا تم افتتاح المعمل الذي كانت مساحته كبيرة. لكن لم يتم تزويده بالمواد والأجهزة بعد، وفي وقت لاحق تم شراء بعض الأساسيات مثل المجسمات والأدوات البسيطة، وتم الاكتفاء بذلك، وحتى التاريخ الذي تركت فيه المدرسة.

في بداية العام الدراسي مدير المدرسة طلب مني أن أكتب قائمة بما يحتاجه المعمل من أدوات وأجهزة خاصة، فكتبت له تقريراً خاصاً بذلك. لكن تلك الأجهزة والأدوات لم يتم شراؤها.

وزعت إدارة المدرسة دفاتر للمعلمين لتحضير الدروس. وذلك حدث أيضا في المدرسة الليبية. تعاملت معي إدارة المدرسة بتقدير واحترام شديدين لخبرتي ومؤهلي، فأنا أحمل قراراً بالتوجيه وهو ما يسمى الإشراف التربوي في السعودية، فلست معلمة مبتدئة عديمة الخبرة. وحصلت على شهادة تقدير في نهاية العام الأول، وكذلك في نهاية العام الثاني، مع شهادات أفضل معلمة خلال شهور العام الدراسي.

في الاختبارات النصفية حضر للمدرسة مشرفون تربويون من وزارة المعارف السعودية، راجعوا أسئلة الاختبارات، ووضعوا ملاحظات للمعلمين على تلك الأسئلة، وحصلت على شكر وتقدير المشرفين. أغلب المعلمين في المدرسة لم تكن مهنتهم الأصلية التدريس، أو لم يمارسوا مهنة التعليم من قبل وعمل المشرفون التربويون دورات تأهيلية مكثفة لمن يحتاجها بحسب ملاحظاتهم لجوانب القصور عند بعض المعلمين التي لاحظوها من خلال أسئلة الاختبار التي وضعها كل معلم لطلابه.

الأستاذ جاسم كان يتابع عمل المعلمين بشكل أسبوعي ويزودهم بالنصائح.

تم تكليفي بدور معلم أول لمعلمي العلوم وفي أول اجتماع لمعلمي العلوم لاحظت علامات عدم الرضى على وجه أستاذ الجيولوجيا والذي رأى أنه أكبر سناً، فشرحت للمعلمين أننا سنعقد اتفاق بيننا لا يصل للإدارة أن كل معلم مسؤول عن مادته، ولا نحتاج للاجتماعات خاصة، وكل منا يمتلك خبرة كافية فيما يخص مادته، بدأت علامات الارتياح ظاهرة على وجه ذلك المعلم.

كتب المنهج السعودي كانت أفضل حالا من المنهجين اليمني والليبي، فالمنهج أقل كثافة، ويعتمد نظام الفصلين. ولكل فصل دراسي كتاب خاص به، وبعد الاختبارات الفصلية في منتصف العام الدراسي يبدأ فصل دراسي جديد بكتب ومواضيع مختلفة، وفي الاختبارات النهائية لا يتم الاختبار إلا في مواضيع الفصل الدراس الثاني. يطبق ذلك حتى في الصف الثالث الثانوي.

الغش في الاختبارات

في العام الثاني في المدرسة وفي أحد الاختبارات لمنتصف العام ضبطت أحد الطلاب وهو يمارس الغش، كانت بعض القوانين والمعلومات قد كتبت سلفا على السبورة لاحظت ذلك فقمت ببساطة بمسح تلك المعلومات، ووجدت على الطاولة التي يجلس عليها ذلك الطالب وعلى الكرسي أيضا قوانين ومعلومات فسارعت لتغيير الطاولة سريعا مع الكرسي.

في اليوم التالي سلمتني سكرتيرة المدير رسالة لفت نظر، وطلبت مني التوقيع على الاستلام، تفاجأت كثيرا، رسالة لفت نظر لماذا؟ أي خطأ ارتكبته حتى استحق رسالة لفت نظر؟

كانت الرسالة تنص على أنني أرهبت الطالب في أثناء الاختبار، وهذا لفت نظر حتى لا أكرر ذلك ثانية لأن الطالب تأثر نفسياً.

حاولت استعادة ما حدث، لم أوجه أية إهانة للطالب، لكنني فقط محوت المعلومات التي أعدها مسبقا بهدف الغش. فهل أخطأت لأني حرمت الطالب من الغش الذي خطط له؟

شعرت بالصدمة، وبالرغم من لطف المدير في التعامل دائما لكن تلك الرسالة أزعجتني كثيرا، وتمنيت لو أن مدير المدرسة استدعاني ليفهم حقيقة ما حدث قبل توجيه هذه الرسالة.

وجدتها فرصة مناسبة لتقديم استقالتي من المدرسة، لقد كنت أفكر من قبل بالاستقالة لكنني كنت مترددة.

فأنا تحت ضغط كبير بسبب التحاقي بالجامعة المالطية لتحضير رسالة الماجستير في الإدارة، المحاضرات تتم في الإجازة الأسبوعية يومي السبت والاحد. اخترت الجامعة المالطية لأنها الوحيدة التي وجدتها تدرس باللغة الإنجليزية. وكانت رسوم المنحة الدراسية التي حصلت عليها من وزارة التعليم العالي في اليمن قد أُعتمدت ووصلت رسميا للسفارة اليمنية في روما، وبذلك بدأت فعليا في إجراءات التسجيل والدراسة.

لهذا كان العمل بالمدرسة بدأ يسبب لي ضغطاً كبيراً إلى جانب مسؤولياتي الأسرية، فكتبت رسالة الاستقالة وذكرت للمدير فيها أنني أحتاج للتفرغ للدراسة. سلمت خطاب الاستقالة للسكرتيرة.

استدعاني المدير ورحب بي في مكتبه وعاتبني على خطاب الاستقالة، وقال لي أنه كان مضطر لكتابة لفت النظر لأن والد الطالب حضر- غاضبا للمدرسة، ووعده أن يفعل ذلك، فقلت للمدير تمنيت لو أنك سمعت وجهة نظري وكذلك والد الطالب كان يحتاج أن يعرف ماذا فعل ابنه. اعتذر المدير مني وقال إنه لن يقبل الاستقالة لأنه ببساطة لن يفرط بمعلمة مثلي.

أخبرته أنني فعلا أحتاج للتفرغ للدراسة. وتحت إلحاحه قررت أن أتراجع عن موضوع الاستقالة.

كان الطلاب يلتقطون تلك الكلمات التي أنطقها بالطريقة الصنعانية وتثير ضحكهم، لا فرق في لهجتي بين نطق بعض الحروف مثل: سطر أو صدر فحرف الدال في اللهجة الصنعانية ينقلب عادة طاء إذا جاء بعد السين أو الصاد، وكان علي تقبل ذلك بصدر رحب.

تدريس الفيزياء من السابع أساسي حتى الثالث الثانوي إضافة لمادة العلوم للصف الخامس الأساسي يعني تدريس سبعة مناهج مختلفة، خاصة وأنا أتعامل مع المنهج لأول مرة وهذا يجعلني مشغولة طوال الوقت بقراءة الدروس، وحل مسائل الكتاب التي كان بعضها يحتوي على أخطاء. فغالبا كنت ابحث على صفحات الإنترنت عن حل للمسائل أو معلومات أكثر عن درس معين في معمل الحاسوب بالمدرسة. كما كان معي في البيت عدد من الكتب المساعدة التي لها علاقة بتدريس الفيزياء.

في الصف الخامس كان عدد الطلاب ثلاثة فقط، ابنتي وابن المدير إضافة لطفل سعودي ثالث. منهج العلوم جميل وخفيف، ويعرض الدرس في الكتاب بصورة واضحة مناسبة لعمر الأطفال في ذلك العمر.

وحتى تكون حصة العلوم للصف الخامس أكثر إمتاعا وفائدة طلبت أذن من الإدارة لتنفيذ بعض الحصص في حديقة المدرسة.

في حصة التكاثر في النباتات أحضرت باقة زهور الزنبق الجميلة؛ لأن أزهارها تأخذ شكل الأبواق ولها ست بتلات كبيرة، فقد كان يهمني قرون البذور، التي طلبت من البائعة ألا تزيلها، حتى يرى الطلاب المقصود بحبوب اللقاح والميسم وأنابيب اللقاح والقلم، وغيرها إضافة للرسومات التوضيحية في الكتاب. استمتع الطلاب الصغار بالحصة.

في الشارع المقابل لبوابة المدرسة كان يقام سوقاً شعبياً أسبوعياً، تباع فيه منتجات متنوعة، مثل الخضروات والفاكهة الطازجة، وزيت الزيتون والأجبان الإيطالية الشهيرة، وكذلك باقات الزهور المتنوعة. يبدأ السوق من الصباح الباكر

وحتى وقت الظهيرة. ومن إحدى البائعات اشتريت تلك الباقة الجميلة من الزنبق.

ذلك السوق الأسبوعي تجد فيه بعض المعلمات فرصة للتسوق، وأخبرتني ابنتي التي كانت في الثالث الثانوي، أن الأستاذ فهد نصحهن بعدم الخروج لهذا السوق خوفا عليهن من عيون الرجال وحرصا عليهن، فهن غاليات وكرر على مسامعهن قصة الذباب والحلوى المكشوفة، وأكد لهن أنه يثق بأخلاقهن لكن عليهن أن يكن حذرات من ارتياد هذه الأماكن فهن فتيات مسلمات.

العام الثاني

نظام المدرسة كان حازما، ولا مجال للتفاوض أو الاعتراض. الدوام يبدأ من وقت الطابور الصباحي حتى انتهاء الدوام. هناك عقود للعمل يتم التوقيع عليها، وهناك قائمة للمرتبات فيها فئات لها شروط معينة من يستوفيها يستلم الراتب المقابل لتلك الفئة. كنت من أصحاب الفئة (أ)، وهي تعني أعلى راتب وتعتمد على عدد سنوات الخبرة والمؤهل الأكاديمي، الراتب ١٣٠٠ يورو؛ لكنه أقل من راتب الموظفة الإدارية السعودية التي تحمل شهادة الثانوية.

همست إحدى المعلمات: " نعم يعطوننا هنا راتب أعلى مما كنا نستلمه في المدرسة الليبية؛ لكنهم يستغلونا بشكل أكبر، فالدوام من الساعة الثامنة صباحا حتى الثالثة عصرا".

قبيل نهاية العام الثاني سرت إشاعة عن تغيير مدير المدرسة، بسبب شكوى كيدية وسيحل مكانه مدير آخر، ذلك الشخص الغريب الذي بدأنا نراه في المدرسة باستمرار. يزور المعلمين في الصفوف الدراسية أثناء عملهم ويتفقد كل كبيرة وصغيرة في المدرسة.

كانت الأخبار متضاربة وغير واضحة، لماذا سيتم تغيير مدير مدرسة ناجح؟

بدأنا نرى أعداداً من الأشخاص الذين يأتون للمدرسة، بسبب الإعلان عن حاجة المدرسة لمعلمين. وتمت المقابلات معهم في الإدارة. ذلك الشخص الذي يقال إنه المدير الجديد كان يجري المقابلات بنفسه.

الشائعة تنتشر وبشدة بين الجميع، والهمس يدور حول استغناء الإدارة عن بعض المعلمين واستبدالهم بمعلمين جدد، همست لي إحدى المعلمات بقلق: - لقد تعاقدوا مع معلم للفيزياء.... يحمل درجة الدكتوراه في الفيزياء..

ونظرت لوجهي مشفقة من وقع الخبر علي.

- حقا. لكن لماذا؟

قلت ذلك مستغربة. أجابت بصوت منخفض:

- يبدو أن مديرنا تمت إقالته وعينوا المدير الجديد، هو غير راض عن هيئة التدريس، غير راض عن كل شيء له علاقة بالمدير السابق.

وتابعت بكثير من القلق:

- عليك أن تتأكدي من الخبر ...الحقي نفسك.

اجتمع المدير الجديد بالجميع، كان اجتماعاً صادماً، شخصية المدير الجديد على النقيض تماما من المدير السابق. ألقى أوامره الصارمة وقراراته وهو مقطب الجبين تبدو عليه علامات الغضب والانفعال، مدير بذيء اللسان يتكلم بصوت عال أقرب للصراخ، لا يحترم أحداً، يتعامل مع الجميع باحتقار. وجه كثيراً من النقد للمدير السابق، ووعد بتدارك كل الأخطاء.

أية أخطاء؟، هدد وأرعد ولوح بسيف العقوبات لكل متهاون.

وخرجنا من هذا الاجتماع الصادم بتوصية واحدة ظل يكررها المدير الجديد:

- من اليوم فصاعدا يمنع منعاً باتاً الابتسامة في وجه الطالب؛ لأن التعامل الحسن مع الطالب من شأنه حمل الطالب على التمرد والعصيان والتطاول على المعلمين!

إذاً هو عهد جديد، لكن ظل السؤال عالقاً في الأذهان: لماذا تم تغيير المدير السابق الذي أحبه الجميع أو هكذا ظننت؟

الإدارة وضعت إعلاناً على الحائط، أنها ستستغني عن بعض المعلمين الذين لا تتناسب مؤهلاتهم مع معايير الإدارة الجديدة للمدرسة، وستسلمهم خطاب إشعار بنهاية العقد، لم استلم ذلك الخطاب فلم أهتم للإشاعة، ودعت المعلمات على أمل اللقاء بهن في العام المقبل، والذي يبدو أنه سيكون مختلفاً تماماً عن سابقيه.

المدير الجديد

تلقينا اتصال بضرورة الحضور للمدرسة قبل انتهاء الإجازة الصيفية، هذه تعليمات الإدارة الجديدة فعلينا الدوام - من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثالثة عصراً - استعدادا للعام الدراسي الجديد، وهناك دفتر للتوقيع، وتم التهديد بالخصم على من لا يلتزم بالحضور اليومي.

التزمنا بالحضور، وكان القلق هو سيد الموقف، توجس وريبة، ورهبة من عام يبدو أنه لن يكون كالعامين الماضيين، لم يكن هناك أي عمل نقوم به رغم أن الحضور إلزامي. وهكذا بدأ العام الدراسي الجديد بداية غريبة دوام دون القيام بأي عمل بانتظار تعليمات المدير الجديد التي سيعلنها خلال الاجتماع الأول مع المعلمين كما قيل لنا، ولم يتم هذا الاجتماع إلا بعد أسبوعين دون توضيح سبب تأخير الاجتماع. ولم تسلم الكتب للمعلمين، رغم أن المدير حدد بأوامر لا تقبل النقاش أو المراجعة لكل معلم ماهي الفصول التي سيقوم بتدريسها. المدير يتعامل مع المعلمين كأنهم يعملون عنده وليس معه مما سبب الشعور بالإحباط وعدم الرضا لكن الاحتجاج غير مسموح به والمطلوب تنفيذ أوامر عليا فقط.

وفي الاجتماع كانت كلمات المدير صادمة للجميع لأنه ركز على عيوب ألصقها بالإدارة السابقة ووصف مستوى التدريس خلال السنتين السابقتين بالضعيف والهابط، رغم أن اثنين من طلاب الصف الثالث الثانوي للمدرسة في أول سنة لافتتاحها حصلا على المستويين السادس والسابع على مستوى المدارس السعودية خارج المملكة، ابنتي حصلت على المستوى السادس، وفي السنة الثانية

حصل طالب من طلاب المدرسة على المستوى الثاني. استغرق أغلب وقت الاجتماع في السخرية من الإدارة السابقة وعدد خيباتها وسلبياتها.

إنه فعلا عام دراسي غريب يحمل مفاجآت غير سارة، فالإدارة استغنت عن عدد من المعلمين دون توضيح أسباب الاستغناء مما فتح الباب على مصراعيه للتأويلات والتخمينات عن أسباب ما حدث. ودار الهمس بين المعلمين: "من حق الإدارة ألا تجدد عقد معلم ما، لكن من الخطأ أن هذا المعلم لا يعرف سبب الاستغناء عنه، ومن الخطأ أن يتم الاستغناء عنه بشكل مفاجئ دون سابق اشعار، وهذا مخالف للعقد الرسمي الذي وقعته الإدارة السابقة مع المعلمين"، ذلك التصرف الاستعراضي من قبل المدير الجديد سبب للمدرسة مشكلة الدخول في قضايا قانونية كان بالإمكان تجنبها لو أن الإدارة الجديدة تصرفت حسب قانون البلد الذي تتواجد فيه المدرسة. البعض همس ساخرا: " هل يظن نفسه في السعودية!".

أكد المدير بنوع من الزهو أن المدرسة ستقدم نموذجاً لبيئة إسلامية معاصرة؛ حيث سيتم فرض زي مدرسي موحد للطلاب وآخر للطالبات، وأكد أن المدرسة لن تفرض لبس الحجاب على الطالبات أو المعلمات في المدرسة ورفض أي نقاش في هذا الأمر الذي أسماه حرية شخصية. "يبدو أن مصطلح حرية شخصية له معانٍ مختلفة!".

استطاع المدير تعيين ابنته مشرفة في المدرسة، فتساءل البعض كيف استطاع الحصول على الموافقة في الوقت الذي لم يسمح للمدير السابق بتوظيف زوجته!

أكد على إنشاء موقع للمدرسة على الإنترنت بثلاث لغات وسيتم تحديثه كل شهر، ولكن ظلت الصفحة الخاصة بالمدرسة على الانترنت التي تم وضعها من قبل الإدارة السابقة كما هي لم تتغير ولم يتم إضافة أي شيء إليها.

ومن الأخطاء التي وجهها للإدارة السابقة استخدام الصالة الرياضية لأداء صلاتي الظهر والعصر جماعة، وإقامة صلاة الجمعة، لذلك لن تقام الصلاة في المدرسة حتى يتم بناء خيمة في ساحة المدرسة للصلاة ولإقامة فعاليات أخرى. لم يعلم المدير أن هذا سيكون سبب لاحتجاج أولياء أمور الطلبة- في اليوم المفتوح - على إلغاء إقامة الصلاة في المدرسة- خاصة وأن الطلاب الذين يستخدمون المواصلات العامة يصلون بيوتهم بعد المغرب. تم تهميش دور الأستاذ فهد، وتحول إلى مدرس لمادة التربية الإسلامية فقط، وألغيت كل صلاحياته وأدواره السابقة.

الغريب في هذا الاجتماع مع المدير أنه لم يتم التطرق إلى التعليمات الجديدة بشأن التدريس والتحضير للدروس ودفتر متابعة الطلاب وكل الموضوعات التي قال سابقا أنه سيتطرق لها في هذا الاجتماع، وسيغير كل قوانين الإدارة السابقة.

طلب من المعلمين عدم البدء بالتحضير خلال الأسبوع الأول من بدء الدراسة واعتبارها فرصة للتعرف على الطلاب، وفجأة عدل عن هذا الرأي في منتصف الأسبوع دون أي توضيح!

جدول جديد

استلمت جدولي في بداية العام وهو الجدول ذاته للعامين السابقين، لكن قبل نهاية اليوم الأخير من الأسبوع الأول لبدء الدراسة تم استدعائي للإدارة لمقابلة المدير، دخلت للإدارة وألقيت التحية، لم يرد المدير التحية، نظر إلي بتجهم ومد يده ليسلمني ورقة عليها جدولي الجديد كما قال، ولدهشتي كان الجدول يحتوي على الصفوف الأولية. الصفوف الاول والثاني والثالث والرابع من المرحلة الأساسية رياضيات وعلوم.

أعدت النظر للورقة بتمعن واستغربت ونظرت للمدير مستفسرة، لكنه قال بكثير من الجفاء، أن هذا جدولي الجديد لأن المدرسة تعاقدت مع شخص يحمل شهادة دكتوراة في الفيزياء النووية لتدريس الفيزياء في المدرسة، وهذا ضمن خطته لتحسين التعليم. قال ذلك بطريقة مستفزة وهو منشغل بتقليب أوراق على مكتبه ودون النظر ناحيتي، تجاهلت ذلك وقلت بهدوء:

- لكنني لم يسبق لي تدريس الأطفال الصغار. خبرتي في تدريس الكبار...

قاطعني ببرود:

- هذا شيء غير قابل للنقاش، عليك الالتزام بالجدول الجديد.

في غرفة المعلمات شكوت لإحدى المعلمات وأخبرتها أنني سأقدم استقالتي، لقد ضقت ذرعا من تصرفات المدير، فصرخت بي:

- لا، لا ترتكبي هذا الخطأ، بكل تأكيد هو يريد ذلك لا تحققي له هدفه.

وشرحت لي أن خبر تعيين معلم جديد للفيزياء يحمل شهادة دكتوراة في الفيزياء النووية، لم يكن جديدا، فقد تم تنبيهي لذلك منذ نهاية العام الدراسي السابق. ومدير المدرسة لم يبلغني بقراره ذلك لأن المعلم الجديد لم يبدأ الدوام إلا في وقت متأخر، ربما لأسباب تتعلق بالإقامة في إيطاليا أو شيء مشابه، لذلك تعمد المدير تأجيل إبلاغي بتنحيتي عن تدريس الفيزياء حتى يتأكد من قدرة المعلم الجديد على الحضور فعلا للمدرسة.

كنت أشعر بما يشبه الغليان داخلي، لكنني هدأت وقررت أن أخوض التحدي، لم لا! سأعتبرها فرصة لتعلم شيء جديد، تحدياً علي أن أخوضه. سأتجاهل أن المدير استخف بي، خاصة والفكرة العربية الغريبة أن تكريم الشخص يعني أن يتولى تدريس فصول أعلى. وتذكرت كيف أن مديرة مدرسة الجيل الجديد في الروضة عندما تريد معاقبة معلمة ما توكل إليها تدريس الفصول الأولية، وعندما تريد تكريم معلمة ما توكل إليها تدريس الفصول الأعلى.

قررت أن أتكيف مع الواقع. في الصف الأول كان عدد الأطفال فقط سبعة، وقررت أن ألعب معهم، وأن يكون الدرس عن طريق الرسم والصور وغيرها حتى أستطيع التعامل معهم. وكانت الطريقة نفسها مناسبة لبقية الصفوف، احتجت أن أحول كل درس لمجموعة من الأنشطة، وأن أبحث عن رسومات، وأوراق ومقصات وألوان ومجسمات، وقبل دخولي كل فصل كنت أتحرك وأنا أحمل كيساً كبيراً من الأوراق والألعاب وغيرها.

طلبت من معلم الرياضيات المسؤول عن تخطيط الجدول للحصص أن يجعل هناك فراغاً بين الحصص لأن أحد الفصول كان في الطابق العلوي والصف الآخر كان في الطابق الأرضي وعند الانتقال بينهما أقابل المدير الغاضب واقفا

عند نهاية السلم الموصل بين الطابقين، وهو يصرخ ويحتج لماذا تأخرت بأسلوبه المتعجرف والبعيد عن أية لمسة ذوق. الأستاذ عبر لي عن أسفه الشديد لأن جدولي وضعه المدير بنفسه ولا يستطيع تغييره إلا بإذن من المدير. وأعرب لي عن استغرابه فهو لا يدري لماذا هذا التصرف من المدير. ووعدني ان يطرح الأمر على المدير ويبلغني بالنتيجة. في اليوم التالي بحثت عنه، فأبدى لي أسفه مرة أخرى وأبلغني أن المدير شدد على أن يبقى جدولي كما هو، بالرغم من محاولته أن يشرح للمدير أن ذلك يتسبب في تأخري؛ لكنه لا يفهم سبباً لموقف المدير المتصلب معي.

قررت تجاوز الأمر ومحاولة التأقلم مع الوضع بدلاً من محاولة مناقشة الأمر مع المدير.

ولكن حدث في صباح أحد الأيام أن استوقفني عدد من الطلاب ممن كنت أدرسهم الفيزياء في المرحلة الثانوية، وأبلغوني أنهم لا يريدون المعلم الجديد للفيزياء فهم لا يفهمون منه شيء، وطلبوا من المدير أن أقوم بتدريسهم من جديد.

كان الموقف صعب ومحرج، فشرحت للطلاب أن هذا الأمر بيد الإدارة ولا أستطيع التدخل فيه، وسيكون موقفي محرجا للغاية. وأرجو أن يتفهموا موقفي، خاصة والمدير يتعامل مع الجميع بأسلوب غير لائق.

وفي حقيقة الأمر أنا سمعت أن هناك مشكلة بين دكتور الفيزياء والطلاب لكنني لم اهتم بالأمر لانشغالي الشديد بقص الأوراق وتلوينها، وتجنبا لأي سوء فهم من المدير وغيره، حتى حدث ما غير ذلك كله.

اليوم المفتوح

قرر المدير الجديد أن يكون هناك يوم مفتوح وحدد يوم السبت، وهو يوم إجازة ليتمكن الآباء والأمهات من الحضور للمدرسة ومناقشة المعلمين في مستويات أطفالهم. وأطلق عليه " يوم دراسي لأولياء الأمور "، وأعلن أن اختياره ليوم السبت مع علمه بأنه يوم إجازة رسمية حتى لا يؤثر على سير الدراسة في المدرسة، والمعلم الذي لن يحضر فهو لا ينتمي للمدرسة ولا للعملية التربوية وسيحاسب على هذا ولن يقبل منه أي عذر. وشرح خطته التربوية العبقرية لإدارة هذا اليوم؛ حيث سيدخل كل ولي أمر في نفس الصف الدراسي لابنه أو ابنته، ويجلس على نفس المقعد ليتعرف علي المعلمين الذين يقومون بتدريس ابنه أو ابنته والذين سيدخلون عليه تباعا يطلعه كل واحد على مؤهله وخبرته وطريقته في التدريس، ويقدم له تقريراً عن مستوى الطالب المعني. ولكي يتم هذا الأمر ستوزع على المعلمين نماذج لتسجيل الملاحظات حول كل طالب، ورصد سلوكياته، وتعرض على الإدارة قبل الاجتماع بوقت كاف.

ولم ينس توجيه النقد للأيام المفتوحة التي عقدتها الإدارة السابقة، وأكد أن الطريقة التي أقترحها، سيكون لها صدى غير عاد عند أولياء أمور الطلاب.

تهامس المعلمون، وتبادلوا نظرات التعجب، ولكن لم يجرؤ أحد على الاعتراض. وتميزت الاجتماعات في عهد الإدارة الجديدة بالصمت المطبق وهز الرؤوس.

لم توزع النماذج التي اقترحها المدير في ذلك الاجتماع على المعلمين، وقبل الاجتماع بيوم واحد وزعت أوراق على المعلمين بأعداد كبيره قام المعلمون بتعبئتها حسب أعداد الطلاب لكل فصل ولكل معلم.

اكتشف أحد المعلمين أن ولي الأمر في نهاية المطاف سيستلم أوراقاً مكررة من كل المعلمين فقامت الإدارة بسحب الأوراق وتغيير التعليمات، وقد أصبح هذا التصرف عاديا ومألوفا، فالمدير يصدر تعليمات غريبة، ثم يتراجع عنها عندما يكتشف غباء فكرته، فألغيت فكرة الصف الدراسي، واستبدلت بتواجد معلمي كل مادة في صف، ويقوم أولياء الأمور بالمرور عليهم حسب خطة معينة تضعها الإدارة.

أبلغت المدير أنني لن أستطيع حضور اليوم المفتوح، وشرحت له أن برنامج الماجستير المكثف الذي سجلت فيه يستلزم الحضور للجامعة أيام السبت والأحد من كل شهر ومن الصعب التغيب لأي عذر، قاطعني بطريقة جافة، وقال دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلي:

- هذا الأمر محسوم وتطرقت له في الاجتماع، الحضور إلزامي ولا قبول لأي عذر.

شعرت بالغيظ وقررت عدم الحضور مهما كان رأيه، فيوم السبت إجازة ولا يحق له إلزامي بحضور برامجه العجيبة.

وبالفعل لم أحضر- فعاليات البرنامج المفتوح، وسمعت من المعلمات الشامتات بالمدير، أن أولياء أمور الطلاب لم يعجبوا بالمسرحية التي كان لابد أن يشاركوا فيها وأكدوا أن الطريقة التي اتبعتها الإدارة السابقة في الأيام المفتوحة كانت أفضل، وعندما تم سؤالهم إن كانت هناك شكوى من المعلمين أبلغوا

الإدارة أن شكواهم من الإدارة نفسها واحتجوا على إلغاء كل من الصلاة ودروس تحفيظ القران التي كانت تتم قبل الطابور لمن يرغب في ذلك، وأصروا على تغيير دكتور الفيزياء النووية وإعادة معلمة الفيزياء السابقة.

ضحكت إحدى المعلمات وهي تخبرني بأن أعداد أولياء الأمور الذين حضروا كانت أقل مما تم توقعه فاضطرت الإدارة لأخذ توقيعات المعلمين الذين لهم أبناء يدرسون في المدرسة ليبدو عدد أولياء الأمور الذين حضروا اليوم المفتوح مناسبا.

ما حدث في ذلك اليوم المفتوح جعل المدير أكثر حنقا وعصبية، فزادت عصبيته وكثرت اخطاؤه.

قرر طلاب المرحلة الثانوية الخروج من الفصول، والوقوف وقفة احتجاج تعبيرا عن رفضهم لدكتور الفيزياء، سمعت ذلك من إحدى المعلمات، لأن الجهة التي بها فصول الثانوية كانت في جهة مختلفة لتلك التي تتواجد فيها الصفوف الأولية التي أقوم بالتدريس فيها. لم أعر الأمر اهتماما لأنني كنت تحت ضغط شديد، نتيجة جدولي المزدحم، الذي زادت فيه الحصص التي أقوم بتدريسها عن النصاب المفروض. حاولت أن أطرد من رأسي فكرة أن المدير يتعمد مضايقتي ليدفعني لترك المدرسة.

جلست بجواري معلمة كانت علاقتي بها وثيقة، ترددت في البداية، فنظرت إليها مستفسرة، فقالت لي وهي تشعر بالحرج:" أن مدير المدرسة جن جنونه بكل تأكيد" . قطبت حاجباي وحملقت في وجهها بانتظار أن تتحدث، فمن الواضح أنها تريد أن تبوح بشيء. انفجرت في نوبة سباب وجهتها لمدير المدرسة، وأخبرتني أن تصرفاته لم تعد مقبولة، وشرعت تشرح لي أن المدير ثارت ثائرته

بسبب إصرار طلاب الثانوية على تغيير معلم الفيزياء فارتفع صوته بالتهديد والوعيد، ووجه السباب لي أنا واتهمني أمام الجميع بتحريض الطلاب على العصيان، لأني أشعر بالغيرة من دكتور الفيزياء وأنه يستطيع إيقافي عند حدي، واتهمني بأني معلمة فاشلة وغيره من التهم. قالت ذلك وبدأت في محاولة تخفيف وقع ذلك علي بتكرار السب والشتم للمدير. كان لكلامها وقع الصاعقة علي. شعرت بأني لا أريد التعليق. وجدت صديقتي تحتضنني ظنا منها أن الخبر أساء لي. لكنني طمأنتها أنني بخير وشكرتها على موقفها.

أغمضت عيناي، وحاولت أن أتنفس بعمق، وهدوء. وبدأت أفكاري تأخذني لترتيب الأحداث. فعادت بي الذاكرة للعامين الماضيين، وقارنت بين الوضع السابق والوضع الحالي.

لقد انتشر القلق وخيم على رؤوس الجميع، وأصبحت أجواء المدرسة غير آمنة. المدير الجديد يتبع سياسة بث الرعب والخوف في نفوس الجميع بهدف التحسين والإصلاح كما يردد، فأي تعليم يرتجى من معلم لا يشعر بالأمن الوظيفي؟ إن الأجواء غير الصحية تنتشر فيها نفوس غير سليمة لها مصالح خاصة، أما مصلحة الطالب فهي آخر ما سيتم التفكير فيه، ويكون الطالب ضحية لمعلم مُحبط يشعر بالغبن فيوجه مشاعره السلبية نحو الطالب. إن التربية بالقدوة والحب والاحترام وليست بالشدة والقسوة. ومن لا يقوم بواجبه كما يجب هو حالة فردية يستوجب التعامل معها وحدها، ولا ينعكس ذلك على الجميع دون ذنب.

المدير الجديد يولي اهتماماً كبيراً للشكليات والقشور وإصدار الأوامر والتعاميم دون دراسة ولا بحث، وعلى المعلمين والطلاب سرعة التنفيذ وكل

ذلك على حساب المنهج والعملية التعليمية نفسها، ويخيل للمرء أن المدرسة تحولت من مؤسسة تربوية إلى ثكنة عسكرية. ومما يحز في النفس الأسلوب الذي يتبعه المدير في التعامل مع الجميع بفوقية واحتقار وسخرية وتعالٍ دون مراعاة لأية مشاعر أو أحاسيس لمعلم أو عامل في المدرسة. كما يوحي لمن حوله بأنه الوحيد الذي يفهم ويعلم. ناهيك عن التناقض في أقواله فما يقوله في اجتماع ينفيه في اجتماع آخر.

وسألت نفسي لماذا الاستمرار بالعمل في المدرسة حيث لا أرضى عما يحدث. ومبدأ "اربط الحمار مطرح ما صاحبه عاوز"، والذي سمعته من البعض، لم يكن سهلا بالنسبة لي.

ووجدت نفسي أفكر بقوة بترك العمل في وسط لا يشجع على الإبداع والإتقان، وسط بدا لي أنه يساوي بين المُخطئ والمصيب ويتعامل مع الجميع وكأنهم متهمون ولن تثبت براءتهم. ومما زاد الطين بلة قيام المدير بتعيين موظف خاص لمراقبة المعلمين ورصد تحركاتهم، فقد يُفتح باب حجرة الصف الدراسي أكثر من مرة للتأكد من تواجد المعلم داخل الصف، ويحدث هذا ببساطة شديدة أثناء حصة زمنها لا يزيد عن ٤٥ دقيقة، البعض قال إنه لضبط المعلمين المتلاعبين! رغم أن الجزء العلوي من الباب زجاجي ولا حاجة لفتح الباب، وكنت أجده موقفاً مضحكاً عندما ألاحظ أحدهم يقف خلف الباب ليرصد حركتي داخل الصف ويتنصت على ما أقول.

شعرت بأن الأمر تجاوز حده، وتصرفات المدير لا تحتمل وليس لها ما يبررها، أسلوب تعامله فظ، ويتعامل معي بشكل مستفز، تجاهلي لتصرفاته يبدو أنها كانت تزيد من حدته وتجاوزاته.

وسألت نفسي ما الذي يحدث حقاً في المدرسة؟ هل أحتاج فعلا للعمل بالمدرسة؟ لقد سبق وقدمت استقالتي للمدير السابق رغم أخلاقه العالية وأدبه الجم، فلم -الآن- أتحمل مديراً أرعن لا يتعامل باحترام ولا مهنية، بل يتعمد إهانتي باستمرار، لقد أشاع جواً غريباً في المدرسة من الخوف وقلة الثقة بين الجميع، مشاعر الغيظ وعدم الارتياح تعلو الوجوه، والمدير يشعر بالزهو وهو يتعامل مع الجميع بطريقة فجة؛ لكن تعامله معي فيه استفزاز أكثر وصل لحد السب والشتم بشكل علني وفي بلد مثل إيطاليا يحق لي رفع قضية عليه، لكنني لا أريد أن أذهب في ذلك الطريق.

فقررت أن أترك المدرسة دون أسف، نعم هذا قرار لا رجعة فيه، قرار تأخرت كثيراً في اتخاذه.

غضبت مني إحدى المعلمات، وقالت لي:

- "المدرسة ليست ملك أبوه لتتركيها، لا تكوني جبانة.. أجمدي".

لكنني شعرت أن بقائي سيسبب لي المزيد من الضغط النفسي فحزمت أمري وقررت ترك المدرسة.

الاستقالة

بدأت بكتابة الاستقالة، فكانت استقالة طويلة مكونة من عدد من الصفحات، صببت كل مشاعر الغضب والقهر على الورق، أردتها استقالة ساخنة تعبر عما أشعر به من سخط وقهر.

زوجي قرأ الاستقالة انفجر ضاحكا، وقال:

- أنت تمزحين بكل تأكيد. هل أنت جادة في الاستقالة أم تساومين المدير؟

فأكدت له جديتي في الاستقالة:

- إذاً لابد من حذف الكثير من هذه الاستقالة.

لكنني تمسكت بها، أردت ان تكون كلمات الاستقالة جارحة للمدير حتى أشعر بالرضى، وأنتقم منه بل وأسبب له جرحاً في كبريائه. أصر زوجي أن يقوم بدور الرقيب وحذف الكثير من فقرات الاستقالة الطويلة والتي كانت مكونة من خمس صفحات، فتحولت لصفحة واحدة. فأعدت كتابتها على مضض.

في صباح اليوم التالي وقفت مترددة هل أدخل لمكتب المدير وأسلمه خطاب الاستقالة بيدي أم أسلمه للسكرتيرة، بعد وقفة حيرة وتردد حزمت أمري وسلمته للسكرتيرة، وأخبرتها أنني سأغادر المدرسة بعد أن أودع المعلمات وآخذ حاجياتي من غرفة المعلمات في الطابق العلوي.

صعدت السلم ببطء وأنا أتأمل المدرسة التي قضيت فيها عامين، اليوم سيكون هو الأخير وسأخرج من باب المدرسة دون رجعة. انتابتني مشاعر متناقضة، هل أنا سعيدة بقراري هذا؟ أم أنني تسرعت؟ ووجدتني أجيب بلا

تردد: نعم، أنا سعيدة سأتحرر من كل المشاعر السلبية التي كادت أن تتغلب علي، لن أعيش ضغطاً عصبياً بعد اليوم، لن أسمع صراخ مدير لا يعرف كيف يتعامل مع الموظفين بأدب، عندما وصلت لغرفة المعلمات عانقتهن بحرارة وتمنيت لهن التوفيق، وجمعت أشيائي من الطاولة المخصصة لي، وأكدت لهن أن هذا هو الأفضل لي ولست نادمة، وأن بقائي هو التصرف الخطأ الذي ارتكبه في حق نفسي، همست لي إحداهن بحزن:

- هل تعلمين أنه يقابل معلمين لتدريس الرياضيات والعلوم للصفوف التي تدرسينها. يا له من ...

وأبلغتني أخرى بخطأ موقفي:

- لماذا تسرعت؟ لقد حققت له ما يريد.

فقلت لها:

- أنت تعلمين أنه يقابل متقدمين لشغر مكاني رغم أنه لم يبلغني أنه سيستغني عني، لن انتظر حتى يفعلها. هل كنت ترضين أن أبقى حتى يطردني من المدرسة بطريقة مهينة؟

كان الوداع صعباً، فقد ربطتني بهن علاقة فيها الكثير من الود والاحترام، عانقت مريم التي استمعت يوما لحكايتها المحزنة، كانت تصف نفسها بأنها منحوسة منذ وطئت أقدامها هذه الأرض، فهي ولدت في العام ١٩٦٧م واضطرت عائلتها التي كانت في طريقها للهروب من فلسطين للتوقف في ما يشبه الكهف في الطريق لأن المخاض فاجئ والدتها في ذلك اليوم، قالت لنا بضحكة غريبة تشبه البكاء:" لقد أخترت أن أطل على هذا العالم في يوم منحوس، ألم أقل

لكن أنني منحوسة"، وتتعالى ضحكتها فنحتار هل نضحك أم نذرف دموع حزينة.

وعانقت بحرارة فاطمة التي كانت تدهشني بقوة شخصيتها، فهي ترتدي النقاب في بلد أوروبي، بعد موجة الإسلام فوبيا التي اجتاحت العالم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لكن ذلك لم يدفعها لخلع النقاب.

عانقتني "هبة" بقوة وهي تذرف الدموع، وتتهمني بالجبن، من يديها عرفت طعم الحمام المحشي بالفريك لأول مرة...

وبعد توديعهن جميعا، فكل واحدة لها ذكرى وحكاية، وقبل خروجي من المدرسة لمحت السكرتيرة تبحث عني، اقتربت مني لا هثة، وأبلغتني أن المدير طلب رؤيتي.

- حقا؟ ماذا يريد مني بعد؟ أنا حققت له ما يريد.

فقالت لي بتوسل:

- أرجوك ادخلي لرؤيته حتى لا تسببي لي بمشكلة.

وقفت مترددة قليلا، وقلت في نفسي: "حسنا لأرى ماذا يريد؟ هل قرر أن يسمعني سباباً وشتائماً قبل مغادرتي؟ لابد أن كلمات الاستقالة أثارت غضبه...لكن مهلا... لن أسمح له بتوجيه أية إهانة لي، نعم لن أسمح له، بل سأرد عليه وأوجه له الصفعة صفعات. لن ينتهي آخر يوم لي في المدرسة بسماعي أي نوع من الإهانات. أنا لن أخسر شيئاً فقد تركت المدرسة.."

وجدتني أقف أمامه وهو خلف مكتبه، وبشكل غير متوقع، وقف مرحبا بي. وأشار بيده لي بالجلوس على المقعد المقابل لمكتبه وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة وغريبة، كانت المرة الأولى التي أراه فيها مبتسما.

ظللت واقفة، غير مستوعبه لما أراه، فأنا دخلت متحفزة لقتال وصراع، فكرر دعوته لي بالجلوس.

جلست وأنا أحاول أن افهم، أشار لخطاب الاستقالة، وتلك الابتسامة العجيبة لاتزال تحتل وجهه:

- ما جاء في خطابك على العين والرأس..

وأشار بيده على رأسه.

- يبدو أننا أغضبناك، وأنا أقدم اعتذاري لك...

قال ذلك ولم أصدق ما أسمع، وتابع بأدب لم استسغه:

- بكل تأكيد الاستقالة مرفوضة، وأنت أستاذة قديرة لا نستطيع الاستغناء عنها.

وجدتني أرد بحدة:

- حقا؟ لكنك تقابل المعلمين لشغل مكاني في تدريس الصغار.

قال محاولا أن يبدو لطيفا:

- نعم...نعم، لأنك ستعودين لتدريس الفيزياء مثل السابق....

- ودكتور الفيزياء؟

قلت ذلك بكثير من الشك، نعم فأنا لا أستطيع تصديقه.

هم بالإجابة لكنني وقفت وأبلغته أنني قدمت استقالتي بعد تفكير طويل، وأنا فعلا لا رغبة لي بالاستمرار في العمل بالمدرسة، وأتمنى له التوفيق وخرجت مسرعة حتى لا أسمع ما كان يقول. لن أسمح لنفسي بالوقوع في الفخ، فهو بكل تأكيد يدبر لي شيئا ما، ولن أسمح بذلك.

غادرت المدرسة وشعرت بكثير من الارتياح، لأيام طويلة كانت هناك سحابة قاتمة غيمت على حياتي، رأيتها اليوم تنقشع وأصبحت السماء زرقاء صافية من جديد، وسمعت زقزقات العصافير التي تطير منتشية بالحرية ...

حسب القانون في إيطاليا يحق لي أن استلم من المدرسة مرتب شهر عن كل سنة عمل في المدرسة، لهذا عدت للمدرسة في الأسبوع التالي لمقابلة المسؤول المالي، وأبلغته أن من حقي أن استلم راتب شهرين. لكنه فاجئني بقوله إن مدير المدرسة لن يوافق على ذلك.

-حقا؟ شيء جميل. سأعود الأسبوع القادم، نعم بعد أسبوع واحد فقط، إذا لم تسلمني ما هو حق لي فسأرفع شكوى ضد المدرسة، أنا جادة فيما أقول. أبلغ مديرك بهذا.

عدت بعد انتهاء الأسبوع، وتفاجأت بالمسؤول المالي يسلمني شيكاً بالمبلغ المطلوب دون أي كلام، وطلب مني التوقيع على الاستلام، والتوقيع أيضاً على انتهاء العقد مع المدرسة.

طويت صفحة المدرسة، كنت كل صباح أوصل ابنتي للمدرسة وأعود لتوصيلها للبيت في نهاية الدوام.

الغريب أنني عندما كنت أصادف المدير واقفاً عند باب المدرسة كان يحييني بابتسامة عريضة، لم أستطع أن أفهمها.

انتهى عملي في التدريس وبقيت في الذاكرة صوراً لعدد من الطالبات والطلاب الذين سعدت بتدريسهم وتعلمت منهم الكثير، أسعدني نجاحي في وضع بصمة في حياتهم...ولعلي أكون نجحت في إضرام شيء من النيران بدلا من المشاركة في ملء الأوعية؟

الفهرس

الإهـــــداء ٧

الحلم والواقع ٩

اللقاء الأول ١٢

أبلة يمنية ١٦

مدرسة الجيل الجديد ٢٢

متعة التدريس ٢٦

النصيحة ٣٠

العصا ٣٢

حصة الفيزياء ٣٧

حصص العلوم ٤٢

أمينة مكتبة ٤٥

طابور الصباح ٤٨

أسئلة الاختبار ٥٥

أمين الصندوق ٦٠

الكونترول ٦٤

قرار معلم أول ٦٩

العـــام الثالث ٧٣

أي سنفور أنا؟ ٧٩

بين البيت والمدرسة ٨١

خلاف في المدرسة ٨٣

وكيلة للمدرسة ٩٣

الحفل الخيري ٩٦

زيارة الوزير ١٠٣

قصص الحب في المدرسة ١٠٥

السياسة في المدرسة ١١١

ظاهرة الغش ١١٥

الجاسوسة ١١٨

حصص الأنشطة ١٢٠

سوء فهم ١٢٥

تحرش ١٢٧

مرض المديرة ١٣٠

المديرة الجديدة ١٣٥

الانتقال لمكتب التربية ١٤٩

مدينة رومـــا ١٥٢

المدرسة العربية الليبية بروما ١٥٤

معمل المدرسة ١٥٦

الكتاب الأخضر ١٥٨

الثالث الثانوي ١٦١

العودة للمدرسة ١٦٦

الاختبارات ١٦٨

معلمات المدرسة ١٧١

مدرسة الملك عبد العزيز السعودية – روما ١٧٤

الغش في الاختبارات ١٧٩

العام الثاني ١٨٣

المدير الجديد ١٨٦

جدول جديد ١٨٩

اليوم المفتوح ١٩٢

الاستقالة ١٩٨